إبراهيم إسماعيل الصعب

# لأسكنِ إليكِ

مجموعة قصصية

بيْن الذّاكرة التّي تنفُت كلّ نواجي
وروحيِّ الّتيُ يتثقلَ جرّجها ألف مرة...

# قلم حمرتها

حَاوَلْتُ أَنْ أَكُونَ بِخَيْرٍ، مَرَّاتٍ كَثِيرَةً وَلَكِنْ لَمْ أَسْتَطِعْ. بِكُلِّ مَرَّةٍ أَنْقَادُ إِلَى الْفَرَاغِ الَّذِي يَتَّسِعُ وَيَأْبَى لِرُوحِي السَّلَامَ. أُحَاوِلُ النِّسْيَانَ وَذَاكِرَتِي تَنْفَتِقُ كُلَّ مَرَّةٍ مِثْلَ جُرْحٍ يَأْبَى أَنْ يَنْدَمِلَ، فَلَا يُوجَدُ جِدَارٌ وَلَا زَاوِيَةٌ إِلَّا وَكَانَ بِهِ أَثَرٌ مِنْ قَلَمِ حُمْرَتِهَا.

أَنَا مَنْ وَضَعَ مِنْ أَثَرِهِ عَلَى كُلِّ جِدَارٍ وَزَاوِيَةٍ، حَتَّى الْكُؤُوسَ كُنْتُ أَضَعُهَا بِحَافِظَةٍ زُجَاجِيَّةٍ أَتَأَمَّلُهَا بَيْنَ الْحِينِ وَالْآخَرِ. قَلَمُ حُمْرَتِهَا الَّذِي لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا الْقَلِيلُ كَانَ مَوْضُوعًا عَلَى مِرْآتِهَا الَّتِي كَانَتْ تُشْبِهُ زَوْجَ الْإِوَزّ. وَقَفْتُ أَمَامَهُ أُعَاتِبُهُ، أُوَاسِيهِ عَلَى مُصَابِهِ، أَشْكُو إِلَيْهِ، أَحْمِلُهُ وَأَعْتَصِرُهُ، أَلُومُهُ عَلَى خِدَاعِهِ لِي مَرَّةً وَأَوَدُّ لَوْ أَسْتَطِيعُ حَرْقَهُ لِأَنَّهُ خَدَعَنِي فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ. هَكَذَا يَمُرُّ اللَّيْلُ وَلَا شَيْءَ يُسْكِتُ سُكُونَهُ سِوَى دَمْعَةٍ مُحْتَرِقَةٍ تَنْزِلُ عَلَى طَرَفِ الْمِرْآةِ، فَإِمَّا أَنْ تُرْسِلَنِي لِعَالَمِ الْجُنُونِ أَوْ تَقْذِفَ بِرُوحِي إِلَى تِلْكَ اللُّعْبَةِ الَّتِي كَانَ مِنَ الْمُفْتَرَضِ أَنْ يَعَضَّ عَلَيْهَا صَغِيرُنَا وَيَسِيلَ عَلَيْهَا مِنْ لُعَابِهِ. بَيْنَ قَلَمِ حُمْرَتِهَا وَتِلْكَ اللُّعْبَةِ أَسْقُطُ مُنْهَارًا وَتُرَاوِدُنِي نَفْسِي بِأَنْ أُحْضِرَ سِكِّينًا وَأُقَطِّعَ أَوْرِدَتِي حَتَّى أَرْحَلَ إِلَيْهِمَا. رُبَّمَا تَكُونُ لَحْظَةً بَيْنَ اللَّذَّةِ وَالْأَلَمِ وَرُبَّمَا يَنْفَتِحُ بَابٌ إِلَيْهِمَا. رَجَفَانُ قَلْبِي يَمْنَعُنِي وَيَحْمِلُنِي إِلَى مَا تَبَقَّى مِنَ الْمَاضِي الَّذِي أَرَاهُ كُلَّ يَوْمٍ بِمُخَيِّلَتِي، وَأَنَامُ صَرِيعًا بَيْنَ تَذَكُّرِ ضَحْكَتِهَا وَآخِرِ أَنْفَاسِهَا الْبَارِدَةِ عَلَى وَجْهِي.

دَوَّتْ صَافِرَةُ سَيَّارَةِ الْإِسْعَافِ وَخَلْفَهَا سَيَّارَةٌ مُتَهَالِكَةٌ تَسِيرُ رَغْمَ كُلِّ أَلَمِهَا وَتَقَدُّمِهَا فِي الْعُمْرِ، تُحَاوِلُ بِكُلِّ قُوَّتِهَا اللِّحَاقَ بِسَيَّارَةِ الْإِسْعَافِ لِحِينِ وَصْلِهَا بَابَ الْمُسْتَشْفَى الَّذِي شَهِدَ أَوَّلَ لِقَاءٍ لَنَا. كَانَ الْوَقْتُ مُتَأَخِّرًا لَيْلَتَهَا وَلَمْ أَسْتَطِعِ النَّوْمَ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا لَيْسَتْ مُنَاوَبَتِي، حَتَّى أَتَتْ تِلْكَ الْأَضْوَاءُ مِنْ بَعِيدٍ وَاقْتَرَبَتْ مِنْ بَابِ الْإِسْعَافِ. وَبَدَأَ الْمُسْعِفُونَ عَمَلَهُمْ عَلَى وَجْهِ السُّرْعَةِ وَأَدْخَلُوهَا عَلَى السَّرِيرِ الْمُتَحَرِّكِ، وَوَرَاءَهُمْ وَالِدَاهَا وَهُمَا فِي حَالَةٍ مِنَ الْبُكَاءِ، وَيَسْتَنْجِدُونَ بِكُلِّ مَنْ يَرَوْهُ بِطَرِيقِهِمْ لَعَلَّهُ يَسْتَطِيعُ إِعَادَتَهَا لِلْحَيَاةِ.

أَمَّا أَنَا فَلَمْ أَكُنْ سِوَى طَبِيبٍ لِلْكُلَى وَلَيْسَ لِي عَلَاقَةٌ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحَالَاتِ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا رَأَيْتُ وَجْهَهَا الشَّاحِبَ وَشَعْرَهَا الْحَرِيرِيَّ الَّذِي كَانَ يُغَطِّي وَجْهَهَا بِقَسْوَةٍ، يَدُهَا الَّتِي تَهَادَتْ عَلَى حَافَةِ السَّرِيرِ كَأَنَّهَا يَدٌ غَارِقَةٌ تَوَدُّ أَنْ يُنْقِذَهَا أَحَدٌ، وَصَوْتُ أَنِينِ أُمِّهَا جَعَلَنِي لَا أَبْدُو كَطَبِيبٍ يُدَاوِي الْكُلَى، بَلْ صِرْتُ مِنْ دُونِ وَعْيٍ وَلَا إِدْرَاكٍ، فَأَمْسَكْتُ بِالسَّرِيرِ وَبَدَأْتُ أَدْفَعُ مُسْرِعًا نَحْوَ غُرْفَةِ الْعِنَايَةِ الْمُشَدَّدَةِ. أَصِيحُ عَلَى الْمُمَرِّضَاتِ وَطَبِيبِ الْإِسْعَافِ وَكَأَنَّهَا تَخُصُّنِي لِأَبْعَدِ الْحُدُودِ. رُبَّمَا تَصَرَّفْتُ حِينَئِذٍ لِدَافِعٍ إِنْسَانِيٍّ، وَقَادَتْنِي مَشَاعِرِي نَحْوَ هَذَا التَّصَرُّفِ، فَأَنَا غَيْرُ مُخَوَّلٍ لِهَذَا الْعَمَلِ، وَرُبَّمَا أُعَاقَبُ عَلَى هَذَا.

وَبَيْنَ الصَّوْتَيْنِ، صَوْتِي وَصَوْتِ وَالِدَتِهَا أَتَى الطَّبِيبُ الْمُخْتَصُّ، وَأَخْرَجَنِي مِنَ الْغُرْفَةِ بِكُلِّ فَظَاظَةٍ. بَقِيتُ مُنْتَظِرًا عَلَى الْبَابِ أَرْقُبُ مَا الَّذِي سَوْفَ يَحْدُثُ. لِمَ يَحْدُثُ هَذَا وَأَنَا طَبِيبُ اخْتِصَاصِيِّ الْكُلَى وَلَيْسَ الْإِسْعَافَ؟ مَا الَّذِي أَفْعَلُهُ أَمَامَ بَابِ مَرِيضٍ لَا أَعْرِفُهُ؟ وَبِكُلِّ يَوْمٍ يَمُرُّ الْعَشَرَاتُ مِنَ الْمَرْضَى وَلَا أُعِيرُهُمْ هَذَا الِاهْتِمَامَ، فَلِي مَجَالٌ مُحَدَّدٌ وَلَا أَقْتَرِبُ مِنْهُمْ، مُمْسِكًا بِقَلَمِ حُمْرَتِهَا وَأَنَا أُحَاوِرُهُ: "هَلْ مَرِضَتْ وَضَعُفَ قَلْبُهَا لِتَخْدَعَنِي أَيُّهَا الْمِسْكِينُ؟ أَمْ أَنَّ الزَّمَنَ رَتَّبَ هَذَا اللِّقَاءَ وَأَنْتَ بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ اتِّهَامَاتِي لَكَ؟"

فَضَّلْتُ الْوُقُوفَ مِنْ بَعِيدٍ وَأَنَا أَنْتَظِرُ ذَلِكَ الطَّبِيبَ الْفَظَّ، أُحَاوِلُ مَعْرِفَةَ مَصِيرِهَا. وَبَعْدَ رُبْعِ سَاعَةٍ خَرَجَ وَأَخْبَرَهُمْ بِشَيْءٍ لَمْ أَعْرِفْهُ فَقَدْ كُنْتُ بَعِيدًا، وَلَكِنَّ نَظَرَاتِ وَالِدَيْهَا أَخْبَرَتَانِي بِأَنَّ حَالَتَهَا قَدِ اسْتَقَرَّتْ. أَمَّا فُضُولِي الْمُبَالَغُ فِيهِ فَقَدْ دَفَعَنِي لِأَنْ أَذْهَبَ لِذَلِكَ الطَّبِيبِ وَأَسْأَلَهُ عَنْ حَالِهَا، رَغْمَ مَعْرِفَتِي بِفَظَاظَتِهِ. عِنْدَهَا رَمَقَنِي بِعَيْنَيْهِ النَّاعِسَتَيْنِ، وَقَالَ: "لَيْسَ لَكَ عَلَاقَةٌ بِهَا، لَيْسَتْ مَرِيضَتَكَ لِتَسْأَلَ عَنْهَا". وَتَابَعَ مَسِيرَهُ، فَتَوَقَّفْتُ بِمُنْتَصَفِ الْمَمَرِّ وَأَنَا فِي حَالَةٍ مِنَ الصَّدْمَةِ مِنْ هَذَا التَّصَرُّفِ...

انْعِكَاسُ صُورَتِي عَلَى مِرْآتِهَا وَصُورَتِهَا الْخَالِدَةُ وَهِيَ تَحُوطُ كَتِفِي بِذِرَاعَيْهَا النَّاعِمَتَيْنِ وَمَوْضِعُ قُبْلَتِهَا عَلَى كَتِفِي أَصَابَ قَلْبِي بِوَخْزٍ عَنِيفٍ. شُعُورُ الْأَلَمِ هَذَا يَجْعَلُ الرَّاحَةَ تَتَدَفَّقُ وَتَنْسَلُّ لِدَاخِلِ رُوحِي، فَرُبَّمَا شَعَرْتُ بِمَا شَعَرْتُ، تَأَلَّمْتُ مِثْلَمَا تَأَلَّمْتُ فَالْحُبُّ بَعْدَ الْأَلَمِ أَكْثَرُ حَنَانًا وَأَشَدُّ وَقْعًا فِي

النَّفْسِ. وَرُبَّمَا مَوَاقِفُ الْآلَامِ تُوَثِّقُ الْحُبَّ وَتَجْمَعُهُ بِأَشَدِّ النَّاسِ بُعْدًا حَتَّى وَإِنْ كُنْتَ قَدْ فَقَدْتَ اللِّقَاءَ بِيَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ.

وَخْزَةٌ أُخْرَى تَنْخُرُ قَلْبِي وَكَأَنَّهَا تِلْكَ الصَّخْرَةُ الْعَنِيدَةُ الَّتِي سَقَطَتْ عَلَى ظُفْرِ قَدَمِي الصَّغِيرِ، الَّذِي تَلَوَّنَ وَأَصْبَحَ أَزْرَقَ قَاتِمًا، وَمَوْجَةُ الْبُكَاءِ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَيَّ جَعَلَتْهَا تَأْتِي وَتَقِفُ بِقُرْبِ جَسَدِي النَّحِيلِ وَتُوَاسِي أَلَمِي بِأَنَّ أَظَافِرَهَا كُلَّهَا زَرْقَاءُ وَلَا تَبْكِي، وَأَنَا ظُفْرٌ وَاحِدٌ وَكُلُّ هَذَا الْبُكَاءِ. ضَحْكَتُهَا وَاسْتِهْزَاؤُهَا بِي جَعَلَنِي أَدْمِجُ الضَّحْكَ مَعَ الْبُكَاءِ. شَقَاوَةُ أَفْعَالِهَا رَغْمَ صِغَرِ سِنِّهَا دَفَعَتْنِي لِأَنْ آلَفَ الْحَيَاةَ. أَمَّا قِطْعَةُ الْحَلْوَى الَّتِي دَفَعَتْهَا بِفَمِي مَعَ مَوْجَةِ الضَّحْكِ وَالْبُكَاءِ وَكَادَتْ أَنْ تَخْنُقَنِي، لَيْتَهَا اسْتَمَرَّتْ إِلَى الْأَبَدِ وَلَمْ تُسْتَبْدَلْ بِقَلَمِ حُمْرَةٍ أَكَادُ أَمُوتُ عِنْدَمَا أَرَاهُ فِي نِهَايَتِهِ.

كِلَانَا كَانَ وَحِيدًا دُونَ شَرِيكٍ فِي الْحَيَاةِ وَرُبَّمَا جَمَعَتْنَا سَنْدُوِيشَاتُ الزَّعْتَرِ وَالْجُبْنَةِ أَكْثَرَ مِنِ اجْتِمَاعِنَا مَعَ وَالِدَيْنَا، جَلَسَاتِ اللَّعِبِ فِي الطِّينِ وَالْحِجَارَةِ، وَتِلْكَ الْبُيُوتُ الَّتِي بَنَيْنَاهَا سَوِيَّةً. وَكَمْ كُنْتُ أَضْغَطُ عَلَى أَظَافِرِي حَتَّى تُصْبِحَ بَنَفْسَجِيَّةً مِثْلَ أَظَافِرِهَا وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ لِتَتَلَوَّنَ بَلْ تَعُودُ لِطَبِيعَتِهَا. الْبَيْتُ الصَّغِيرُ الَّذِي بَنَيْتُهُ لَهَا مِنْ حِجَارَةِ الطَّرِيقِ وَأَهْدَيْتُهُ لَهَا وَوَعَدْتُهَا بِأَنِّي سَوْفَ أَبْنِي لَهَا عِمَارَةً كَبِيرَةً وَنَعِيشُ سَوِيَّةً. لَمْ أَتَصَوَّرْ بِأَنَّ جُدْرَانَهَا سَوْفَ تَبْقَى وَحِيدَةً وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا سَوْفَ يَحْكِي لِلْآخَرِ حِكَايَةً عَنْهَا....

كُلُّ تِلْكَ الذِّكْرَيَاتِ وَالْآلَامِ سُجِنَتْ بِقَلْبِي وَوُضِعَ عَلَيْهَا بَابٌ حَدِيدِيٌّ لَمْ يَكُنْ لِيَنْكَسِرَ لَوْلَا رُؤْيَتُهَا يَوْمًا وَأَنَا لَا أَعْلَمُ أَنِّي أَرَاهَا، فَشَعْرُهَا الَّذِي غَطَّى وَجْهَهَا وَظَلَمَنِي لِسَاعَةٍ مِنَ الزَّمَنِ، كَانَ أَضْعَفَ مِنَ الِاسْتِمْرَارِ بِفَعْلَتِهِ. فَأَلَمُ حُبِّي لَهَا سَاقَنِي لِأَنْ آتِيَ رَغْمًا عَنِّي وَأَنْظُرَ إِلَيْهَا وَأَعْرِفَهَا... إِنَّهَا هِيَ بِكُلِّ تَفَاصِيلِهَا لَمْ تَتَغَيَّرْ، وَعَهْدُ الْفِرَاقِ الَّذِي قَطَعَتْهُ عَلَى نَفْسِهَا كَسَرَهُ الزَّمَنُ. قَدْ تَكُونُ الْحَيَاةُ عَادَتْ إِلَى ذَاتِي حِينَئِذٍ، فَالَّتِي ابْتَعَدَتْ وَرَفَضَتِ الْقُرْبَ مِنِّي سَاقَهَا الزَّمَنُ إِلَيَّ، وَتِلْكَ الْحِجَارَةُ الَّتِي بَنَيْتُهَا لَمْ تَتَهَدَّمْ بِرَفْضِهَا لِي لِأَوَّلِ مَرَّةٍ.

كَبِرْنَا سَوِيَّةً، وَقَلْبُهَا سَكَنَ قَلْبِي، وَلَمْ يَسْمَحْ لِأَحَدٍ سِوَاهَا بِأَنْ يَنْزِلَ بِهِ. وَهَكَذَا اسْتَمَرَّ قَلْبِي يَنْبِضُ بِهَا، وَيَزْدَادُ دُونَ كَلِمَاتٍ، إِلَى اللَّيْلَةِ الَّتِي اسْتَمَرَّتْ أَلْفَ

لَيْلَةٍ فَقَدْ قَرَّرْتُ خِطْبَتَهَا وَاشْتَرَيْتُ لَهَا الْخَاتَمَ وَتَقَدَّمْتُ لَهَا، فَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَّا رَفَضَتْنِي لَيْسَ لِأَنَّهَا لَا تُحِبُّنِي، بَلْ لِأَنَّ أَحْمَرَ شِفَاهِهَا يُرِيدُ الِاسْتِمْرَارَ وَقَالَتْ: "لَنْ أَقْدِرَ الزَّوَاجَ مِنْكَ"، وَرَحَلَتْ مُبْتَعِدَةً تَارِكَةً كُلَّ حُمَمِ الدُّنْيَا بِقَلْبِي، وَغَابَتْ عَنِّي حَتَّى أَهْلُهَا ابْتَعَدُوا هُمْ أَيْضًا لِمَكَانٍ لَا أَعْرِفُهُ. تَوَقَّفَتِ الْحَيَاةُ عَنِ الْحَيَاةِ، وَبِتُّ أَعِيشُ جَسَدًا لَا رُوحًا، مَكَانًا لَا زَمَنَ، فَأَنَا قِطْعَةُ جَسَدٍ تَتَحَرَّكُ لَا أَكْثَرَ، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي رَأَيْتُهَا وَعَادَتْ عَقَارِبُ الزَّمَنِ إِلَى الْعَمَلِ.

فِي الْيَوْمِ التَّالِي دَخَلْتُ إِلَيْهَا عَرَفْتُهَا وَعَرَفَتْنِي، مَعْرِفَةَ الرَّبِيعِ بِزَهْرِهِ، وَمَرَّ شَرِيطُ حَيَاتِنَا بِلَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَيْتَ الزَّمَنَ يَتَوَقَّفُ، حَتَّى أُطِيلَ نَظَرَاتِي، أُطِيلَ حُبِّي، أُطِيلَ رُوحِي أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ، أَسْتَطِيعُ النُّطْقَ، حَتَّى هَذَا كَانَ مَسْجُونًا مُكَبَّلًا، حَتَّى خَرَجْتُ وَفَكَّرْتُ بِأَخْذِ مَكَانِ سَكَنِهَا مِنَ الْإِضْبَارَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهِمْ مَلْؤُهَا.. مُجَرَّدُ أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ، سَبْعُ سِنِينَ، سَبْعَةُ قُرُونٍ، سَبْعُ أَرَاضِينَ كُلُّهَا تَعَاقَبَتْ عَلَى قَلْبِي الَّذِي اشْتَاقَ لَهَا. ذَهَبْتُ لِلْغُرْفَةِ الِانْفِرَادِيَّةِ وَأَخْرَجْتُ ذَلِكَ الْخَاتَمَ وَذَهَبْتُ لِبَيْتِ أَهْلِهَا وَطَلَبْتُ يَدَهَا، وَعِنْدَمَا وَافَقَتْ وَدَخَلْتُ جَنَّتَهَا، كَأَنِّي وُلِدْتُ مِنْ جَدِيدٍ وَلَمْ أَعِشْ سِوَى لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ.

بِكُلِّ ثَمَرِهَا وَقُصُورِهَا كَانَ حُكْمًا عَلَيَّ بِأَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهَا دُونَ أَنْ آكُلَ مِنْهَا، كُلُّ هَذَا الشَّوْقِ وَجَنَّتُكِ وَهِيَ مِلْكٌ لَكَ لَا تَقْدِرُ لَمْسَهَا. تَقَبَّلْتُ حَالِي وَرَضِيتُ بِالَّذِي قُسِمَ لِي، فَعُقُوبَةُ لَمْسِهَا الْخُرُوجُ مِنْهَا.

اسْتَمَرَّ حُبِّي وَشَوْقِي لَهَا، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي انْهَارَتْ أَسْوَارُهَا وَفَاضَ شَوْقُهَا وَارْتَمَيْتُ بِكَوْثَرِهَا، فَتَبَرْعَمَتْ أَوَّلُ زَهْرَةٍ لَنَا وَغَدَتْ رُوحًا بِدَاخِلِ رُوحِهَا. هِيَ تَعْلَمُ أَنَّ انْهِيَارَ أَسْوَارِ جَنَّتِهَا يَعْنِي مَوْتَهَا، وَلَكِنْ فَضَّلَتْ مَوْتَهَا عَلَى وُقُوفِي خَارِجَهَا.

قَلَمُ حُمْرَتِهَا الَّذِي بَاتَ بِآخِرِهِ لَمْ تَعُدْ تَضَعُ مِنْهُ، لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ. هِيَ بِضْعُ نَبَضَاتٍ لَا أَكْثَرَ وَاللَّوْنُ الْأُرْجُوَانِيُّ يَزْدَادُ وَيَتَّسِعُ لِبَقِيَّةِ جَسَدِهَا. أَمِنَ الْعَدْلِ أَنْ تَمُوتَ كُلُّهَا، وَتَنْهَدِمَ أَسْوَارُهَا لِأَبْقَى وَحِيدًا مَعَ قَلَمِ حُمْرَةٍ انْتَهَى مِنْ خِدَاعِهِ لِي وَتَسْتَمِرُّ دَائِرَةُ حِوَارِنَا كُلَّ لَيْلَةٍ، عَلَى سَرِيرٍ بَارِدٍ لَا أَعْرِفُ أَيْنَ مَكَانُهُ، بَلْ مَنِ الَّذِينَ مَعِي، فَأَنَا لَا أَعْرِفُ أَحَدًا، وَلَا أُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ ذَلِكَ

الْمُمَرِّضُ وَيُعْطِيَنِي تِلْكَ الْحُبُوبَ وَيَسْمَحَ لِي بِأَنْ أَتَحَرَّكَ قَلِيلًا وأحاور قلم حمرتها....

## موعدٌ مُسبَقٌ

لم يكنْ لي ذنبٌ فيما حدثَ، فأنا لستُ تلك الشَّمسَ التي أخذتْ ظلَّها، ولستُ شجرةَ الكرزِ التي أسقطتِ الرِّيحُ زهرَها، فأنا لستُ سوى رُوحٍ مُعذَّبةٍ تأمُلُ اللقاءَ والموعدَ كلَّ يومٍ، الموعدَ الذي آملُ أن يأتيَ دورُه على صحيفةِ المواعيدِ، فهل للحبِّ أن يأخذَ موعداً مُسبَقاً فيُصبحَ دونما خيرٍ فيه؟ دعيه كالموتِ سيدتي... كالميلادِ يأتي من دونِ ميعادٍ، فلا تجعلي للحبِّ موعداً فيموتَ قلبي قبلَ موعدِه.

ذلك العهدُ الذي قطعتُه على نفسي جعلَ من جسدي سِجناً مُتحرِّكاً، يعيشُ القلبُ بداخله لأنَّ تلك المحكمةَ الباطلةَ حكمتْ عليه بأدلَّةٍ وشهاداتٍ مُزوَّرةٍ، والحاكمُ والقاضي لم يكنْ إلا أنتِ، فليس لي ذنبٌ بما أخذتِ الأقدارُ منَّا، وكيف لي أن أنسى ما أخذتْ فهو مِلكُنا نحنُ الاثنان، ما باليدِ حيلةٌ والحياةُ لن تقفَ، وعَوْدةُ الحبِّ بداخلي لعلَّها تُعيدُ رسمَ أطيافِ الحياةِ المسلوبةِ.

لأنِّي بكلِّ مُكوِّناتي بِتُّ مُحطَّماً، بِتُّ مُنكسِراً وأحتاجُ أن أُجبَرَ، حتى ولو كانتْ كلمةً واحدةً، فحَرُّ الصحراءِ ليومٍ كاملٍ يُمكنُ أن تُذهبَهُ قطرةٌ واحدةٌ من المطرِ.

أنا رجلٌ مثلُ بقيَّةِ الرجالِ، أو لنقلْ مثلُ بقيَّةِ الأطفالِ، أحتاجُ للحبِّ حتى أقوى على العملِ، ولكنْ بِتُّ كلَّ جسدي يُؤلِمُني ويدفعُني للانهيارِ.

أما ذلك الذي كان يُوقِظُني كلَّ ليلةٍ من شوقه لها فتعطيهِ حقَّه من حُبِّها، باتَ اليومَ لا يتجرَّأُ أن يُوقِظَني مخافةَ رفضها، عندها سوف أَلعنُه حتى الصباحِ، حتى المماتِ؛ لأنَّه لم يمُتْ، ويُعلنَ استسلامَه بعدُ.

كان لي حِضْنٌ كلَّما بَرَدَ قلبي أَلجَأُ إليه ولم يَعُدْ، كان بعيداً قريباً صار بعيداً بعيداً، لم يكنِ الموعدُ المُسبَقُ إلا معها، فصار معها ومعها! فاليومَ أُحاولُ ترتيبَ الموعدِ بيني وبينَ الموتِ، بيني وبينَ الفناءِ، وبينَ مواعيدِ اللقاءِ، حتى أتخلَّصَ من تبعيَّةِ ذلك الموعدِ الذي أذلَّني بليلةٍ واحدةٍ مرَّتين: مرَّةً

عندما عادتْ ذاكرتي، ومرَّةً عندما سُلِبَتْ ذاكرتُكِ، وعُدتِ لسجنِ اللاذكرياتِ..

عند نهايةِ اليومِ، كانتِ البعيدةُ تُعطي قلبي بعضَ الهدوءِ، هدوءٌ نابعٌ من رؤيةِ وجهها الملائكيّ، ربما لثانيةٍ أو لثانيتين، ولكنْ كانتْ كفيلةً بمسحِ الإجهادِ والتعبِ، أما القريبةُ فهي وإن حاولتْ هذا فهي غيرُ قادرةٍ على فعلِ ذلك، ربما بسببِ قلبي الذي تعلَّقَ بالأملِ البعيدِ، وربما لأنَّ البعيدَ يملكُ سِحراً لا يملكهُ القريبُ، سِحرَ الخمرِ المصنوعِ من العِنبِ، فحُرمةُ الخمرِ توازي شوقي إليكِ يا ابنتي، وقهري على شجرةِ الكرمةِ التي تسكنُ بجواري، فكلُّ أوراقها قد تساقطتْ ولم تَعُدْ تحملُ أيَّ ذاكرةٍ، ليس لكِ فقط، بل لي أيضاً، وعلى روحي كلَّ يومٍ أن تصنعَ المستحيلَ حتى تَقَعَ بحُبِّها كلَّ يومٍ، فأُحاولُ ترتيبَ الموعدِ كلَّ يومٍ، فتقَعُ أمُّكِ بحُبِّي كلَّ يومٍ، وعند الصباحِ تعودُ كأنَّها هي، ذاتُها التي أحببتُها وأحبَّتْني دونَ موعدٍ مُسبَقٍ، نظرةٌ وفنجانُ قهوةٍ كفيلانِ بأن يخلقا شرارةَ حُبٍّ تدومُ ليومٍ واحدٍ، ثم تُمْحى الذاكرةُ جرَّاءَ الألمِ، ألمِ فقدِكِ يا ابنتي، كما تعلمينَ فإنَّ أولَّ مهمةٍ لي في الحياةِ كلَّ يومٍ هي أن تَقَعَ أمُّكِ الصغيرةُ بحُبِّي لعلِّي أُواسيها وتُواسيني، فذاكرتُها أصبحتْ كذاكرةِ طفلٍ بعمرِ الشهورِ من بعدِكِ، فأنا أُفكِّرُ كلَّ يومٍ بترتيبِ موعدٍ غراميٍّ معها، ففي الصباحِ لا بُدَّ لي من زهرةٍ حمراءَ ولوحِ شوكولاتةٍ أُقدِّمُهما لها، فأَخيطُ جرحَ وجهِكِ غرزةً تَنفتِقُ كلَّ ليلةٍ وأُعيدُ المحاولةَ في الصباحِ، لن أَمَلَّ ترتيبَ المواعيدِ بيني وبينها، وطيفُ جرحِكِ لن يَمَلَّ من جعلِها تَنسى، آه لو تعلمينَ يا بُنَيَّتي مدى قسوةِ الموتِ بين ذاكرتين، بين يومينِ في الحياةِ ولا يوجدُ سواهُما، بين شجرةِ الزيتونِ والكرزِ، بين غروبينِ وشروقٍ مُتوقِّفٍ وراءَ الأُفُقِ، تلك القسوةُ التي تدفعُني لأن أفتحَ خزانتَكِ التي باتَتْ تَغُصُّ بأزهارٍ حمراءَ وألواحِ الشوكولاتةِ، فبكلِّ يومٍ تَضَعُ أمُّكِ هديَّةَ موعدِها الأوَّلِ بخزانتِكِ وتُغلقُها، فقلبُها مُنقطعٌ وَريدُه على قبضتها، ولا أعلمُ أيَّ يومٍ أدخلُ مع أمِّكِ ذلك البابَ ونُهاجرُ سويَّةً إليكِ، فأنا أصبحتُ سجيناً بين حُبِّكما، وكلاهُما كان الفقدُ عنوانَهُما، مرَّةً عندما أحببتُ والدتَكِ وتتيمتُ بها، ومرَّةً عندما أشرقتِ بوجهِكِ لتُضيئي عمري... الليلةَ الفائتةَ ذهبتْ ذاكرتي ليومٍ أحببتُها ونسيتُ

موعدي المتجدِّدَ مع حُبِّها الصباحيِّ كلَّ يومٍ ولم أُقدِّمْ لها هديَّتَها، احترقَ قلبي لرؤيتها مُنزويةً على نفسها في الزاويةِ تبكي مثلَكِ عندما كنتِ صغيرةً، إنَّها مثلُكِ، أنتِ شبيهتُها بكلِّ شيءٍ، يا لي من رجلٍ أنانيٍّ فكيف أنسى هديَّتَها، ويا لتلك الذاكرةِ من جمالٍ وقسوةٍ، جمالِ أزهارِ الكرزِ التي جمعتْني بها أولَّ مرَّةٍ، كنتُ صغيراً أجمعُ أوراقَ الشجرِ والأزهارِ وأُلصِقُها على دفتري، حتى ساقني القدرُ بأن أراها وقد أخذتْ قبضةً من أزهارِ الكرزِ تعدُّها، اقتربتُ منها وكانتِ البراءةُ عنوانَ عينيها، فمدَّتْ إليَّ يدَها التي كانتْ مُغلقةً، ففتحتْها وأعطتْني تلك الزهرةَ التي جمعتْني بها، وجعلتْني منذُ الصِّغرِ أتعلقُ بها وأُريدُها... كان تعلُّقاً خالداً بين طفلينِ لا تجمعهُما إلا البراءةُ بين أعينهِم، ولا شيءَ سوى سكينةٍ بدأتْ تُعشِّشُ داخلَ النفسِ وتستمرُّ لأعوامٍ حتى ينضُجَ الكرزُ وتُصبحَ تلك البريئةُ زوجتي، وأعيشَ بين ذراعيها، وتعزفَ الحبَّ لي كلَّ يومٍ على قيثارةِ شفتيها، لأتوقَ بكلِّ ثانيةٍ أن يحملَني النسيمُ بكلِّ لحظةٍ نحو إشراقةِ عينيها، ولا يحلَّ المساءُ حتى بَانَ كوكبُ الزهرةِ الذي هو أنتِ يا بُنيَّتي، أربعةَ عشرَ يوماً كانتْ طويلةً جداً حتى يكتملَ وجهُكِ وتُنيرينَ عتمةَ الليالي، تبتسمينَ لي كلَّما لقيتُكِ وتقبضينَ بشعاعِكِ الرقيقِ على أناملي فنرحلُ نحنُ الثلاثةُ سويَّةً لأسوارِ الجنَّةِ ونتعلَّقُ بها، ونأملُ أن يطولَ ذلك اللقاءُ.. أربعةَ عشرَ يوماً ولا شيءَ بعدَها، توقَّفَ الزمنُ وأبَى لنا الاستمرارَ، بين ذراعي والدتِكِ أَفَلَتِ، رحلتِ دونَ وداعٍ، دونَ أملٍ بلقاءٍ مُرتقبٍ، فأخذتِ كلَّ الذكرياتِ من جوفِ أمِّكِ ولم تُبقِ لها سوى ذاكرتِكِ التي احترقتْ، فتعيشُ والدتُكِ بذاكرةٍ مشلولةٍ لا تعرفُ منها سوى طفلةٍ بعمرِ الرابعةِ والثلاثينَ تنتظرُ كلَّ يومٍ زهرةً حمراءَ ولوحَ شوكولاتةٍ ولا شيءَ أكثرُ، ويستمرُّ الموعدُ المُسبَقُ بيني وبينها على إثرِكِ إلى نهايةِ اليومِ الذي أفتحُ به خزانتَكِ وندخلُها دونَ موعدٍ مُسبَقٍ، فأَعيشُ اللقاءَ واللُّقيا بكما...

# المَرأةُ تُنجِبُ مَن تُحِبُّ

في أحدِ أيامِ الشتاءِ الباردةِ التي تَمُرُّ على القرى، والوقتُ بينَ العصرِ والمغربِ، دخَلَ ذلكَ الكَهْلُ إلى بيتِهِ المُنكسِرِ انكسارَ الفقراءِ. المطرُ كانَ غزيراً حينها. أما زوجتُهُ التي كانتْ قد أعدَّتْ لهُ طعامَ المطرِ، حساءَ العدسِ، تلكَ الوجبةَ التي تأتي معَ المطرِ وتذهبُ معَ الشمسِ، كأنها عاشقةٌ للمطرِ فلا تتشَرَّفُ إلا بقدومِهِ.

اقتَرَبَ منَ الموقدِ الطينيِّ، وَوَجَّهَ راحَتَيْ يديهِ إليهِ؛ لعلَّ تلكَ الأكُفَّ الخشنةَ والمُثقَلَةَ تَلينُ بِحَرِّ نارِهِ. ثمَّ صاحَ على زوجتِهِ، أو كما يناديها بـ**"أُمِّ البناتِ"؛ فهيَ قد أنجبتْ سبعَ بناتٍ: "أحضِري الطعامَ! ماذا طَبَختِ اليومَ؟ منَ المؤكدِ أنّهُ العدسُ. يوماً ما سوفَ يَنبُتُ على رأسي لكثرةِ ما تَطبخينَهُ". وتابَعَ حديثَهُ ضاحكاً: "وسوفَ نَحصدُ بَيْدَراً منهُ".**

قَرَّبتْ لهُ الصحنَ الفَخَّاريَّ الكبيرَ وعميقَ القعرِ، مُمتلئاً لِحَدِّ الحوافِّ؛ فقد كانَ الرجلُ يأكلُ بكَمِّيَّةٍ كبيرةٍ، فرُبَّما يَتَناسَبُ هذا معَ قَدْرِ الطاقةِ التي يَبذُلُها كلَّ يومٍ بأعمالِهِ الشاقةِ بينَ صخورِ حقلِهِ. ثمَّ فَتَّ خبزَ التنورِ بهِ، وبدأَ يأكلُ بِنَهَمٍ شديدٍ. وحتى لا نَظْلِمَ ذلكَ الرجلَ؛ فقد كانَ جائعاً جداً. كانَ العدسُ اللذيذُ معَ فحلِ البصلِ الذي كَسَّرَهُ بقبضتِهِ جعلهُ يُصْدِرُ أصواتاً كأنها مَعزوفةٌ خاصةٌ بالطعامِ. وهكذا حتى امتَلأَ جوفُهُ كاملاً.

وقد حانَ موعدُ الشايِ في الإبريقِ الأسودِ على جَمْرِ الموقدِ، فَصَبَّ منهُ، ومعَ سيجارةٍ منَ التبغِ العربيِّ الثقيلِ، أنهى مَراسِمَ قِطعةِ الحياةِ اليوميةِ والمُكَرَّرةِ كلَّ يومٍ.

الأمُّ والبناتُ السبعةُ تَحلَّقوا جميعُهم حولَهُ. لم يُنْهِ الرجلُ كأسَ الشايِ حتى طُرِقَ البابُ، ويبدو منَ الطرقاتِ أنها امرأةٌ؛ فخَشَبُ السنديانِ لا يَصيحُ على أَكُفِّ النساءِ.

نهضتْ أُمُّ البناتِ وفتحتِ البابَ فكانتْ أُمَّ سَعدٍ. **"تَفَضَّلي، يا مَرحباً بِكِ!"** دخلتِ المرأةُ البيتَ، فلم تكنْ تتحرَّجُ النساءِ منْ وجودِ صاحبِ البيتِ، فكما يُقالُ عنْ نساءِ ذلكَ الزمنِ: (أختُ رجالٍ). كانتْ تحملُ بينَ يديها صُرَّةً بها

بعضُ الزبيبِ والجوزِ، قد أحضرتْها معها، ورُبَّما هيَ هديةٌ، ورُبَّما لأمرٍ آخرَ يَجولُ بِخَلَدِها. فأُمُّ سعدٍ لم تكنْ ذاتَ جودٍ أو كَرَمٍ معروفٍ بينَ الجيرانِ، ولكنها أحضَرَتْ تلكَ الصُّرَّةَ بيدِها. ففتحتْها، ثمَّ طلبتْ منَ البناتِ الاقترابَ منها وأعطتْ لكلِّ واحدةٍ منهنَّ قَبْضَةَ زبيبٍ وجَوْزَةً. وربما تَعَمَّدَتْ إعطاءَ الجوزةِ الكبيرةِ لأكبرِهنَّ سِنّاً.

ابتسمتْ أُمُّ البناتِ بهدوءٍ خافِتٍ، ثمَّ قدَّمتْ كأساً منَ الشايِ لها، وبدأتْ تبحثُ عنْ حديثٍ لعلَّها تَكْسِرُ ذلكَ الموقفَ بشيءٍ. ولكنَّ أُمَّ سعدٍ رُبَّما كانتْ مُنهمِكةً بأمرٍ آخرَ فلمْ تَكُنْ تُعيرُ الأحاديثَ اهتماماً كبيراً، بل كانَ جُلُّ اهتمامِها مُنْصَبّاً على أَمَلَ، البنتِ الكبرى، التي لمْ يكنْ فَمُها لِيَتَّسِعَ للجوزةِ. ومعَ إلحاحِ المرأةِ كَسَرَتْ أملُ الجوزةَ الكبيرةَ.

يا لتلكَ المرأةِ منْ داهيةٍ! ويا لتلكَ الأعينِ التي ليسَ لها مثيلٌ بزمانِنا هذا سوى جهازِ السونارِ الذي يَكشِفُ الجنينَ ببطنِ أُمِّهِ!

أملُ التي لمْ تكنْ سوى شابةٍ بدأتْ تَتَنفَّسُ الحياةَ ويُلامِسُ النسيمُ الدافئُ وَجْنَتَيْها، لا تعرفُ أنها باختبارٍ ربما كانَ مناسباً لجنودِ القواتِ الخاصةِ أكثرَ منها. فأُمُّ البناتِ لمْ تكنْ غافلةً، فهيَ تعلمُ جيداً ما الذي تَرمي إليهِ أُمُّ سعدٍ؛ فولَدُها قد صارَ شاباً ولا بُدَّ منْ زوجةٍ لهُ، فكثيراً ما كانتْ تسمعُ صوتَهُ وهوَ يَصرُخُ على الجميعِ وكأنهُ ديكٌ بينَ مجموعةٍ منَ الدجاجِ. فرُبَّما كانتْ تلكَ المواقفُ هيَ المُفَسِّرَةُ لِنِيَّةِ الزواجِ.

وهكذا حتى انقَضَتْ ساعةٌ على قُدومِ المرأةِ. فجهازُ السونارِ لمْ يَبْقَ شيءٌ إلا وفَحَصَهُ. عجيبةٌ تلكَ المرأةُ! هلْ تبحثُ عنْ زوجةٍ أَمْ مُقاتِلَةٍ؟ لا يهمُّ هذا، فقد اجتازتْ أملُ كلَّ الاختباراتِ بنجاحٍ، ثمَّ انصَرَفَتْ إلى إكمالِ الحديثِ معَ أُمِّ البناتِ، وشَرِبتْ عدةَ كؤوسٍ منَ الشايِ، ولمْ تَنصَرِفْ حتى لَفَظَ الإبريقُ آخِرَ قطرةٍ منهُ.

انقضتْ تلكَ الزيارةُ، ورحلتْ أُمُّ سعدٍ تاركةً وراءَها أسئلةً كثيرةً، ورُبَّما فرصةً لأولِ فَرَحٍ يَدخُلُ ذلكَ البيتَ الفقيرَ. ولا أَقصدُ سوى أولِ فرصةٍ للزواجِ؛ فالفَقْرُ لا يَمنَعُ السعادةَ، بل يُمكِنُ أن يكونَ جالِباً لها.

بعدما ذهبتْ كلُّ واحدةٍ منَ البناتِ إلى فراشِها الصوفيِّ، جلستْ أُمُّ البناتِ بجانبِ زوجِها أمامَ الموقدِ، وكانَ يَعُبُّ دُخانَهُ الثقيلَ بشراهةٍ كبيرةٍ، وكأنَّ التبغَ فيلسوفُ الهدوءِ والموقفِ.

سألتْهُ: "هلْ تعلمُ سببَ قدومِ أُمِّ سعدٍ؟"

أجابها: "صحيحٌ أني لمْ أكنْ مُنتبهاً كثيراً، ولكنْ أعلَمُ قصةَ الجوزةِ. أنسيتِ كيفَ أكلتُ سبعَ جوزاتٍ أحضرتْها لكِ أُمّي؟ لا بُدَّ أنكِ كنتِ سعيدةً بي".

سادَ الجوَّ موجةٌ منَ الضحكِ بينَ الزوجينِ لِمَزحةِ الرجلِ.

ثمَّ تابَعَ حديثَهُ: "ليسَ لديَّ مانعٌ إن كنتِ لا تُمانِعينَ. هيَ الأخرى ليسَ لديها مانعٌ، ويبدو أنَّ أملَ ليسَ لِرأيِها دورٌ. مَنْ يَسألُ عنْ مشاعرِها وكيفَ تُحِسُّ؟ هلْ تقبلُ الزواجَ برجلٍ لا تعرفُهُ ولا تعرفُ أصلَهُ وفصلَهُ، طباعَهُ وحالَهُ؟ هلِ المهمُّ موافقةُ الوالدينِ حتى يَتِمَّ الأمرُ!؟"

أملُ تلكَ الفتاةُ التي ما زالتْ حديثةَ العهدِ بالحياةِ، ولمْ تَرَ بحياتِها سوى أولادِ أعمامِها وخالتِها، سوى الدلالِ والحُنُوِّ منْ والديها. هذهِ الطبيعةُ الاجتماعيةُ يُمكِنُ أن تكونَ هيَ السببَ وراءَ عدمِ اتخاذِ آراءِ البناتِ بذاكَ الوقتِ، ورُبَّما كانَ يَتِمُّ سُؤالُهنَّ والجوابُ المُقَرَّرُ سابقاً هوَ الموافقةُ.

أملُ التي لمْ يكنْ أحدٌ يَعلَمُ بأنَّ قلبَها قد اتَّجهَ نحوَ ابنِ خالتِها وتَعَلَّقَ بهِ، مُنذُ صِغَرِها وهيَ تُحِبُّهُ وتُريدُهُ، فلا تُحِبُّ اللعبَ معَ أحدٍ غيرِهِ، ورُبَّما تَختَلِقُ الأعذارَ حتى تَتقَرَّبَ منهُ. قد تَفتَعِلُ مشكلةً لو أنَّ أحداً غيرَها كانَ شريكَهُ في اللعبِ، فهمُ الثنائيُّ بكلِّ مرَّةٍ، ولو حَدَثَ لها حادثٌ ما فلنْ يقومَ أحدٌ غيرُهُ بِحَمْلِها على ظهرِهِ حتى تَصِلَ لمنزلِها. تلكَ العلاقةُ منذُ الصغرِ صعبةُ الكسرِ والولادةِ، عَصِيَّةٌ على القلبِ. فما إنْ تَدخُلُهُ تَغْرِسُ جذورَها وتُصبِحُ كَعادةِ الحياةِ، فلا يُمكِنُ الحياةُ منْ دونِها، وإنِ استمرَّتْ دونَها فهيَ حياةٌ بائسةٌ، مَشلولةُ الأطرافِ.

ولكنْ مَنْ سوفَ يُعيرُ لتلكَ المشاعرِ اهتماماً؟ فَرَحَى القمحِ لنْ تدورَ بالحبِّ، والقمحُ لنْ تُجَزَّ سنابلُهُ بالشعورِ. البيتُ الباردُ لنْ يقومَ الحنانُ بِتدفِئَتِهِ. فأمامَ الحياةِ قد يقفُ القلبُ عاجزاً عنِ المواجهةِ ويَختَبئُ خلفَ ستارٍ، ذلكَ الستارُ

الذي يكونُ هَشّاً ويَتَمزَّقُ رويداً رويداً حتى تَستَحيلَ الحياةُ. فالذي يقفُ خلفَهُ هوَ القلبُ الذي يَنبِضُ بالحياةِ وللحياةِ.

أملُ التي تحتضنُ لُعبتَها عندما تَنامُ بكثيرٍ منَ الأحيانِ، وتَحْلُمُ بالغَدِ الذي تَرى بهِ ابنَ خالتِها مُقبِلَةً على الزواجِ. صحيحٌ أنها قد أصبحتْ بسِنِّ الزواجِ، ولكنها طفوليةٌ إلى حَدٍّ ما. تعرفُ أعمالَ المنزلِ وتُجيدُها، ولكنها رقيقةٌ بِزَمَنِ القسوةِ والخشونةِ. تعرفُ حَلْبَ الشياهِ، وبالمقابلِ تُحِبُّ أنْ يأتيَ أحدُهم لها ولو بحَبَّةِ حلوى. تُجيدُ تَوضيبَ المنزلِ والطبخِ، ولكنها تَحلُمُ بأنْ يأتيَ أحدُهم ويَسوقَها بيدِهِ خلفَهُ. ورُبَّما هيَ لا تعرفُ كثرةَ الأحاديثِ الدافئةِ، ولكنها أكثرُ مَنْ يُجيدُ الأحلامَ والانتظارَ والأشواقَ.

انتهى الحديثُ بينَ الزوجينِ على الاتفاقِ وتَزويجِ أملَ دونَ الاكتراثِ لأيِّ شعورٍ رُبَّما تَحملُهُ بداخلِها.

مَرَّ أسبوعٌ على آخرِ زيارةٍ قامتْ بها أُمُّ سعدٍ. كانَ يومَ جمعةٍ، وبعدَ الصلاةِ، حضرتْ عائلةُ سَعدٍ بأكملِها لِخِطبةِ أملَ. كانَ الشابُّ خشنَ الملامحِ يَكبُرُها بعشرِ سنينَ، يبدو جافَّ المشاعرِ والأحاسيسِ، هذا إنْ كانَ يَملِكُ منها شيئاً؛ فرُبَّما طبيعةُ الحياةِ التي عاشها كانتْ سبباً بعدمِ امتلاكِهِ لبعضِ المشاعرِ. فَرَعيُ الأغنامِ وقضاؤُهُ مُعظَمَ وقتِهِ بهِ جعلهُ قاسياً.

اجتمعَ الكلُّ بذلكَ المنزلِ، وخطبَ والدُ سعدٍ أملَ منْ والدِها الذي وافقَ مباشرةً. ورُبَّما وافقَ والدُ أملَ لأنهُ لا يعرفُ بأمرِ حُبِّ ابنتِهِ لابنِ خالتِها، أو لنَقُلْ أنَّ العاداتِ كانتْ سائدةً بأنَّ أمرَ البنتِ بيدِ والدِها. واتَّفقَ الطرفانِ على موعدِ الخطبةِ بعدَ أسبوعٍ واحدٍ، والزواجُ يكونُ في الأسبوعِ الذي يَليهِ. انقضتِ الزيارةُ وكانتْ ثَقيلةً على صدرِ أملَ، فهيَ بدأتْ تُحِسُّ بِحَجْمِ الكارثةِ التي سوفَ تَقَعُ بها.

بعدَ مُغادرتِهم، ظهرَ على وجهِ أملَ مشاعرُ الحزنِ، ولكنها لمْ تُخبِرْهم بالذي تَكتُمُهُ داخلَ قلبِها. فرُبَّما لو أخبرتْهم لَتَعَرَّضَتْ لكثيرٍ منَ التوبيخِ، ورُبَّما التعنيفِ منْ والديها. ولكنها فضَّلتْ أنْ تُخبِرَ أمَّها سِرّاً بعدمِ قبولِها، ورُبَّما تَجِدُ لها حَلاً.

وانتظرتْ لِحينِ موعدِ خروجِ والدِها منَ المنزلِ، وأخبرتْ أُمَّها بأنها لا تُريدُ هذا الزواجَ، وهيَ تُريدُ ابنَ خالتِها. أُمُّها لمْ تكنْ غبيةً، فهيَ تعرفُ هذا الأمرَ منذُ زمنٍ بعيدٍ، ولكنها لا تَكتَرِثُ لمشاعرِ ابنتِها؛ فخِلافُها معَ أُختِها جعلَها تُعرِضُ عنْ هذا الأمرِ تماماً، ولنْ تقبلَ بأنْ تُعطيَ ابنتَها لابنِ أُختِها. ورُبَّما تُفَضِّلُ أنْ تُزَوِّجَها للقِردَةِ بدلَ تَزويجِها لابنِ أُختِها وتُصبحَ أُختُها حَماتَها.

ورغمَ كثرةِ المحاولاتِ منْ أملَ، إلا أنَّ والدتَها رافضةٌ رفضاً قَطْعِيّاً هذا الأمرَ. فأموالُ عائلةِ سَعدٍ قد أَعْمَتْ بصيرتَها، وأَنْسَتْها مشاعرَ ابنتِها. كيفَ ستعيشُ؟ لا يهمُّ. ورُبَّما فقرُ أُختِها، أو اتهامُها لها بالبُخلِ، هوَ سببُ كلِّ هذا الكُرهِ والحقدِ. لِمُجَرَّدِ اتهامٍ وكُرْهٍ يُحكَمُ بالشقاءِ على فتاةٍ طيلةَ حياتِها. ورُبَّما لو أخبرتْ والدَها بهذا الأمرِ لَمَنَعَ كلَّ هذهِ المَهزلَةِ، ولكنها كانتْ خائفةً منَ الردِّ الذي رُبَّما كانَ اتهاماً لا أكثرَ.

أما ابنُ خالتِها فقد عَلِمَ بالأمرِ، وحاولَ جُهدَ استطاعتِهِ إفشالَ الأمرِ، حتى خالتُها قد أَتَتْ لِخِطبتِها، ولكنْ أُختَها رفضتْ، وداسَتْ على كلِّ شيءٍ، وفَضَّلَتْ سَيطرةَ المالِ على علاقتِها بأُختِها وسعادةِ ابنتِها. والدُها عَلِمَ بالأمرِ ولكنهُ لمْ يكنْ يَكتَرِثُ كثيراً بالأمرِ هوَ الآخرُ، فكثرةُ الاتهاماتِ والأقاويلِ بحقِّ خالةِ أملَ جعلهُ يَنحازُ إلى زوجتِهِ بالرأيِ.

وهكذا أُجبِرَتْ أملُ أمامَ تصميمِ والديها على تزويجِها بسعدٍ، ذلكَ الشابِّ الذي لا تعرفُ عنهُ شيئاً. أسبوعٌ واحدٌ فقط وتَنعزلُ أملُ عنِ العالمِ، تَضَعُ حُبَّها بِجَرَّةٍ فخاريةٍ وتُغلِقُ عليهِ. حاولتِ اللقاءَ بعُمرَ ابنِ خالتِها ونَجَحَتْ بهِ، وشَهِدَتْ شجرةُ البَلُّوطِ الكبيرةُ لقاءَهُما الذي استمرَّ أكثرَ منْ ساعةٍ دونَ حديثٍ تَعلَمُهُ الألسُنُ، بل حديثٌ أَجادَتْهُ القلوبُ فقط.

فَكَّرَتْ بأنْ تَهرُبَ معَ عُمرَ، وعَرَضَتْ عليهِ الأمرَ، ولكنهُ لمْ يَقبَلْ؛ فَرَغْمَ كلِّ ألمِهِ، فهوَ لنْ يقبلَ بأنْ تَتَعَرَّضَ لِلانتقاصِ وألسُنِ الناسِ. وبهذا الرفضِ انتهى اللقاءُ الذي منَ الممكنِ أن يكونَ الأخيرَ، ثمَّ قَفَلَتْ راجعةً لِسِجنِها مفتوحِ الأبوابِ، السجنِ الذي حارسُهُ نَبْعُ حنانٍ وحامي الحِمَى.

مَرَّتِ الأيامُ الستُّ وحانَتِ الخطوبةُ، واجتمعَ حشدٌ كبيرٌ ببيتِ والدِها، وبغرفةٍ أخرى كانتْ قد وُضِعَتْ على كرسيٍّ وتحتَها وِسادةٌ، هكذا جَرَتِ العادةُ. يدُها المُخَضَّبَةُ بالحِنَّاءِ، وشَعرُها الأسودُ المُسَرَّحُ انسَدَلَ على كتفيها، مُجَرَّدُ ثوبٍ غيرِ كاشِفٍ وتَسريحةٍ للشعرِ، بضعُ سَحَباتٍ منَ الكُحلِ زَيَّنَتْ عَينَيْها السوداوينِ، وهذا كلُّ الذي كانَ مُتَوافِراً. لا شيءَ سوى جَسَدٍ دونَ روحٍ تُحَرّكُهُ.

فلا ابتسامةَ ولا ضحكةَ تُسعِدُ الأجواءَ. فما النفعُ بِجَسَدٍ يَعمَلُ كالآلةِ فقط؟ هلِ المهمَّةُ فقط العملُ وإنجابُ الأطفالِ؟ رُبَّما...

حَماتُها حاولتْ جَعْلَها تَرقُصُ بفرحِها، ولكنها أَبَتْ ولمْ تَقبَلْ. امتعَضَتْ ولكنها أقنَعَتْ نفسَها بأنها خَجولةٌ والأمرُ صعبٌ عليها. صواني الفُستُقِ والحلوى التي تُرَشُّ فوقَ الرؤوسِ أمطَرَتْ كأنَّ السماءَ تُمطِرُ بالحصى. الأجواءُ المُختَنِقةُ برائحةِ العَرَقِ وبكاءِ الأطفالِ، هذهِ هيَ الخطوبةُ! الخطوبةُ التي يَبكي بها الأطفالُ ضيقاً، والعروسُ اختناقاً.

أما بالغرفةِ المجاورةِ، فكانتِ الأمورُ أفضلَ نوعاً ما، فالرجالُ كأنهم عِقدٌ حولَ الغرفةِ، أجواءٌ مهيبةٌ معَ أحاديثَ عنْ أحوالِ القريةِ والزراعةِ. وبعدَ عدةِ نَظَراتٍ بينَ والدِ سعدٍ وجَدِّهِ، الذي تَقَدَّمَ بالحديثِ وطلبَ أملَ منْ والدِها أمامَ الحضورِ، وبعدَ سماعِ الموافقةِ أتى الشيخُ وطلبَ الإذنَ بسماعِ الوَكالَةِ منَ البنتِ، تلكَ الكلمةُ التي لو تَجَرَّأتْ أملُ برفضِها لَمَا أصبحتُ كاتباً، ولكنها قَبِلَتْ، ووضعَ سعدٌ يدَهُ بيدِ عَمِّهِ، وتَمَّ عَقْدُ القِرانِ.

وبعدَها تَمَّ تقديمُ الحلوى الشعبيةِ، الراحةِ المُمَسْكَنةِ والفُستُقِ، ونوعٌ آخرُ هوَ الهريسةُ. وبعدما تَناولَ الجميعُ الحلوى، استأذنَ سعدٌ بالذهابِ إلى خطيبتِهِ بالغرفةِ المجاورةِ. وبعدَ أنْ وَضَعَتْ جميعُ النساءِ غطاءَ الرأسِ عدا أملَ، دخلَ سعدٌ وجَلَسَ بقُربِها، وبدأتِ المراسمُ التقليديةُ، المراسمُ التي أَغلَقَتْ على روحِ أملَ بِطينٍ أسودَ بتلكَ الجَرَّةِ الفخاريةِ التي خَبَّأتْها بصدرِها.

الزغاريدُ ورقصُ أُمِّ سعدٍ، تلكَ البدينةِ التي لمْ تُعِرْ لِكِبَرِ سِنِّها أهميةً، وبدأتْ تَرقُصُ كأنها تُلقي بتَعاويذَ لِطردِ الأرواحِ الشريرةِ، فهوَ ليسَ بِرَقصٍ حتى، بل قفزٌ وتَمايُلٌ، فهذا الذي تعرفُهُ. مراسمُ تبادُلِ قِطَعِ الحلوى الذي منَ

المفروضِ تبادُلُ قِطَعٍ منَ الروحِ، كانَ كئيباً جداً، وكأنها تُبادِلُهُ قِطَعاً منْ جَسدِها، ورُبَّما هذهِ هيَ الحقيقةُ، فكانَ زواجاً جَسدياً لا أكثرَ، عَهدٌ على الخدمةِ وإنجابِ الأطفالِ، أما الروحُ فلا مكانَ لها.

ذلكَ الموقفُ الذي جَعَلَ ضريحَ قلبِهِ يَنشَقُّ ويُخرِجُ تلكَ الروحَ الأسيرةَ، التي لمْ تُطْعَمْ منَ المشاعرِ شيئاً. حياةٌ جديدةٌ أمامَهُ، وروحٌ يجبُ أنْ تَتَعَلَّقَ بهِ. حاولَ مُناجاتَها بعينِهِ لكنهُ فشلَ، طفلٌ رضيعٌ يُحاوِلُ الحصولَ على الحبِّ لأولِ مرَّةٍ منِ امرأةٍ لمْ تُنجِبْهُ.

"مُبارَكٌ لكِ يا أملُ"، تلكَ العبارةُ قالها وشَفَتاهُ تَتَرَقَّصانِ.

أملُ التي رَدَّتْ عليهِ بإجابةٍ لنْ يَفهَمَها مَهَما حاولَ: "عليكِ السلامُ". وسكتتْ طوالَ جُلوسِها حتى هَمَّ بالرحيلِ، وانتهتْ تلكَ الخطوبةُ.

الزمنُ لنْ يتوقفَ، ورَحَى الأيامِ لنْ تتوقفَ عنْ طحنِ روحِ أملَ، الروحِ الدفينةِ بِجَرَّةٍ فخاريةٍ، ولنْ يَتَبَقَّى لها سوى بضعةِ أيامٍ حتى تُلْقَى بِغَياهِبِ سِجنٍ مفتوحِ الأبوابِ، بيتِ الزوجيةِ الذي فُرِضَ عليها. قلبٌ لنْ يَستجيبَ لأوامرِ الروحِ مهما صَرَخَتْ، وجسدٌ سوفَ يَعمَلُ كالآلةِ تَحمِلُها الأيامُ على التحمُّلِ. عيونٌ سارحةٌ على نافذةٍ مفتوحةِ الأبوابِ، وكأنها تَستجدي الرحمةَ منَ الزمنِ ويَتَوَقَّفَ.

"هوَ لنْ يَتَوقَّفَ يا أملُ"، وكأنَّ صوتَ داخِلَها بدأَ بمُناجاتِها، "ولكنهُ سوفَ يَخيطُ لكِ جَنَّتَكِ الخاصةَ بهذا البيتِ".

حانتِ الظهيرةُ، وأَتَتْ أُمُّ سَعدٍ ومعَها قريباتُها، فقد جَرَتِ العادةُ أنْ تأتيَ النسوةُ لِيُبارِكْنَ للمخطوبةِ الجديدةِ، ثمَّ يَذهَبْنَ لِتجهيزِ العروسِ، ببعضِ الأثاثِ: مُجَرَّدُ صندوقٍ خشبيٍّ كبيرٍ، وبعضُ الحُصُرِ المصنوعةِ منَ القَشِّ، فَرْشَةٌ منْ صوفِ الأغنامِ ولِحافٌ، وعدةُ وسائدَ، هذا هوَ الجهازُ، الذي حُمِلَ على رؤوسِ النساءِ ووُضِعَ بالغرفةِ بجانبِ بيتِ العائلةِ، وأُوصدَ البابُ لِحينِ يومِ الزواجِ الذي كانَ على الأبوابِ، مُجَرَّدُ يومٍ واحدٍ وتَنتَقِلُ أملُ لبيتِ الزوجيةِ.

اليومُ الذي لنْ تَهدَأَ أُمُّ سَعدٍ بهِ، وسوفَ تُلَقِّنُ التنورَ دروساً بصنعِ الخبزِ. قُدورٌ كبيرةٌ تُحْشَى بداخلِها لحمَ الخِرافِ على نارِ الحطبِ، وكأنَّ الأيامَ تَسيرُ على ظَهرِ جَوادٍ. وهكذا انقضتِ الأيامُ وحَضَرَ يومُ الزفافِ.

وحَضَرَتِ امرأةٌ حتى تُزَيِّنَ أملَ بما أُتيحَ لها، مُجَرَّدُ تسريحةٍ للشعرِ، وكُحلٍ أسودَ بعينَيْها، وثوبُ الزفافِ الأبيضُ. ابتسامةٌ ظهرتْ على وجهِها ولا يُعرفُ سببُها، فأمُّها التي ضَفَرَتْ لها ضفيرتينِ صغيرتينِ قالتْ لها: "ابتسمي يا ابنتي، فرُبَّما خيرُ السماءِ بأنْ تُجدِبَ. هكذا قالتْ لي جَدَّتُكِ قبلَ الزواجِ منْ والدِكِ".

"ما معناها؟ عِشتُ طيلةَ حياتي حتى أعرفَ معناها ولمْ أَعرِفْ".

بينَ نبرةِ أُمِّها الجدِّيَةِ ومِزاحِها ضحكتْ أملُ؛ لأنها عَلِمَتِ المَغزى، ولكنها لمْ تُبدِ. وبعدَ فترةٍ حَضَرَ سعدٌ معَ أُمِّهِ وعائلتِهِ، ووُضِعَتْ أملُ على صَهوةِ فَرَسٍ عربيةٍ حتى وَصَلَتْ لبيتِها الجديدِ، وبدأَ الاحتفالُ، واجتمعتِ القريةُ بمُعظَمِها. الكلُّ يَرقُصُ، والنسوةُ تُزَغرِدُ، والطبلُ بصوتِهِ يَخترِقُ صمتَ الحياةِ بداخلِ جَسدِها. ورُبَّما سمعتْ صمتَ عُمرَ داخلَ قلبِها. هدوءٌ بعالمِ الأرواحِ يجعلكَ ترى الواقعَ خيالاً، ويَنصاعُ الجسدُ ويَسيرُ نحوَ الاستسلامِ.

الجسدُ الذي سوفَ يَحْمِلُ يدَها فتَضربُ قِطعةَ العجينِ على بابِ البيتِ فتَلتصِقُ التصاقَ اسمِها بالحياةِ، فسَلَّمَتْ نفسَها دونَ روحِها لزوجِها. فلا حُبَّ ولا حياةَ حتى يَقضيَ الزمنُ بأمرِها. فإمَّا أنْ تَبقى هكذا تعيشُ فقط على هامشِ الحياةِ تَضَعُ قناعَ الطينِ على وجهِها، أو تَستَرِدَّ الحياةَ يوماً.

بعدَ عدةِ أشهرٍ ظهرَ حَمْلُ أملَ، واستبشرتْ خيراً بهِ، وبدأتْ تَستَرِدُّ شيئاً منْ طاقتِها اتجاهَ الحياةِ، وليسَ لِسَعدٍ فضلٌ بهذا. فيومَ ناجاها بعينَيهِ تلكَ، كانتِ اختلاجةَ قلبٍ لا أكثرَ، فبعضُ البشرِ لا يعرفونَ ما الحُبُّ. ورَغْمَ كَوْنِهِ عامَلَها بكلِّ وُدٍّ، وقَدَّمَ لها أيَّ شيءٍ تَطلُبُ، ولكنهُ لا يُجيدُ التحدُّثَ إليها، علاقةٌ جسديةٌ لا أكثرَ. طيلةَ فترةِ حَمْلِها لمْ يُفَكِّرْ أنْ يَضَعَ رأسَهُ على بَطنِها ويَستَمِعَ لِنَبضِ ابنِهِ، لمْ يَتَأمَّلْ حركاتِ ابنِهِ بداخلِ أحشائِها.

ومَرَّتِ الأيامُ تَطوي بعضَها البعضَ حتى حَضَرَتْ ولادتُها. أيقَظَتْهُ بمُنتصَفِ ليلةٍ باردةٍ تُخبِرُهُ بأنها سوفَ تَلِدُ: "سعدُ يا سعدُ: أنا أَلِدُ". ورَغْمَ

ألمِها إلا أنهُ لمْ يُواسِها بشيءٍ، بل فَرَكَ عَينَيْهِ وذهبَ وأحضرَ الدايةَ التي أتتْ مُسرِعَةً، ثمَّ تَوَجَّهَ لبيتِ أهلِها يُخبِرُهم بولادتِها، حتى اجتمعتْ نِسوةٌ منْ خاصَّتِها عندها فَوَلَّدْنَها.

وكانَ المولودُ صبياً لا يُشبهُ والدَهُ أبداً. أخذتْهُ النسوةُ وَوَضَعْنَهُ على صدرِ أُمِّهِ التي كانتْ مُتعَبةً كثيراً، أخذتْهُ وقَبَّلَتْهُ وغَفَتْ بعدها بهدوءٍ جميلٍ، وكأنَّ الزمنَ أهداها هديةَ صَبرِها.

أخذتْ أُمُّ سعدٍ الصبيَّ وأعطتْهُ لوالدِهِ تُبَشِّرُهُ، وعندما نظرَ إليهِ وكأنَّ أحداً صَفَعَهُ على وجهِهِ، لمْ يَفرَحْ بهِ. ما ذنبُ الطفلِ حتى يُعادَ إلى جَدَّتِهِ دونَ قُبلةٍ منْ والدِهِ؟ هلْ يُخلَقُ الكُرهُ خَلْقاً، أمْ يُتَّهَمُ اتهاماً؟

أُمُّهُ التي نظرتْ إليهِ عندَ الصباحِ، ورأتْ بهِ الحياةَ، رأتِ الحُبَّ يُخلَقُ مرَّةً أخرى، صغيراً ناعِماً. فقد وَلَدَتِ الذي أحبَّتْ. رأتْ بهِ وجهَ عُمرَ كاملاً، الشوقُ ذابَ بوجهِهِ، والحُبُّ قَطَرَ بعينِهِ. جَرَّةُ الفخارِ بدأتْ تَتَكسَّرُ ليولَدَ الحُبُّ منْ جديدٍ، حُبٌّ دونَ قُيودٍ، حُبُّ أُمٍّ لابنِها تَرى بهِ حُبَّها الأولَ، فالجَسَدُ أَنبَتَ، والروحُ رَسَمَتْ، فَنَتَجَتْ لوحةٌ بصورةِ طفلٍ يَجعَلُ منْ أملَ تُخلَقُ منْ جديدٍ.

سعدٌ لمْ يَتَقَبَّلْ هذا رَغْمَ عِلْمِهِ بوفاءِ أملَ، وأصبحَ هائِماً على وجهِهِ، فنفسُهُ تَتَّهِمُها زُوراً، وعقلُهُ باتَ مَشلولاً، وكلما كَبُرَ الطفلُ ظهرَ الشَّبَهُ أكثرَ فأكثرَ، حتى لمْ يَعُدْ سعدٌ يُطيقُ النظرَ بوجهِ زوجتِهِ، وقرَّرَ الطلاقَ منها، فنفسُهُ حَكَمَتْ عليها بالخيانةِ دونَ دليلٍ.

سعدٌ الذي اعتادَ طيلةَ أيامٍ مُناجاةَ أملَ بقلبِهِ عندما يكونُ وحيداً بينَ الجبالِ: "لماذا يا أملُ؟ أنا لا أستَحِقُّكِ، بل أنتِ لا تَستَحِقِّينَنِي". ويبقى هكذا طوالَ يومِهِ بينَ أَخْذٍ وَرَدٍّ داخلَ قلبِهِ.

دخلَ البيتَ وليسَ لهُ وجهٌ يُلاقي بهِ زوجتَهُ. حاولَ مرَّةً وراءَ مرَّةٍ بشِفاهِهِ المُرتَجِفَةِ أنْ يقولَها ولو لمرَّةٍ واحدةٍ بحياتِهِ: "أُحِبُّكِ يا أملُ"، ولكنهُ كلما نظرَ لوجهِ ابنِهِ ظهرتْ لهُ صورةُ ابنِ خالتِها وصَفَعَتْهُ على وجهِهِ.

جَلَسَ بقُربِها وهيَ واضعةٌ ابنَها بِحِجْرِها تَنظُرُ إليهِ، وكأنهُ يَتَسَوَّلُ بعضَ الحُبِّ ولكنهُ لمْ يَحصُلْ على شيءٍ، فقد ذهبتْ أملُ وذهبَ قلبُها لِصغيرِها. حاولَ مرَّاتٍ ومرَّاتٍ النطقَ بكلمتِهِ الأولى، وبكلِّ مرَّةٍ يقفُ جدارٌ أمامَهُ، ولكنهُ فَضَّلَ في النهايةِ الخلاصَ، فقالَ لها: "اذهبي يا أملُ، فلمْ تَعُدْ حياتي معَكِ مُمكنةً. بيتُ والدِكِ أحقُّ بكِ. خُذي كلَّ شيءٍ واذهبي، فأنتِ طالِقٌ".

لمْ تُحاوِلْ أملُ الدفاعَ عنْ نفسِها، فَصَمْتُها كانَ قائلاً أكثرَ منَ الكلامِ. ورَغْمَ صمتِها أمامَ ظُلمِ زوجِها، إلا أنهُ صَفَعَها على وجهِها ظُلْماً وقَهْراً لها، تلكَ الصفعةُ التي أرادَ بها كسرَ حاجزٍ لمْ يَستَطِعِ النظرَ وراءَهُ، وأنْ يَعيشَ بهِ، فارتدَّتِ الصفعةُ إلى حياتِهِ مُنْهِيةً إياها قبلَ ولادتِها حتى.

أُمُّ سعدٍ التي كانتْ واقفةً على عَتَبَةِ البيتِ لمْ تكنْ مِثلَ ابنِها، بل طلبتِ السماحَ منها، وأخذتْها منْ يدِها، وأودَعَتْها لبيتِ والدِها، وأخرجتْ منْ صدرِها عدةَ عُملاتٍ ذهبيةٍ وأعطتْها لها حتى تُرَبّيَ ابنَها، وقَفَلَتْ راجعةً.

دخلتْ أملُ وأثرُ الصفعةِ على وجهِها، فَقَصَّتْ على والديها الذي حَدَثَ معَها وكيفَ طَلَّقَها زوجُها. لمْ يَعرِفْ والداها ماذا يقولانِ، فَهُما يَعرِفانِ السببَ، فلا يُمكِنُ للروحِ إلا أنْ تَجعَلَ الجسدَ يُنجِبُ مَن تُحِبُّ.

أما أملُ فقد اقتَرَبتْ منَ الموقدِ الطينيّ، وجلستْ بقُربِهِ، واضعةً صغيرَها بِحِجْرِها تَتَأمَّلُهُ، تُناغيهِ، تُناجيهِ بأنهُ الحُبُّ الذي سوفَ تعيشُ معَهُ لبقيةِ حياتِها.

وبعدَ سنةٍ على حادثةِ طلاقِها، تَقَدَّمَ عُمرُ لِخِطبتِها، إلا أنها رفضتْهُ. هيَ لمْ تَرفُضْهُ لأنها لا تُريدُهُ، بل لأنها لا تُريدُ استبدالَ زوجٍ بزوْجٍ آخرَ، ولمْ يَعُدِ القلبُ يَتَّسِعُ لِحُبَّينِ مُنفَصِلَينِ تماماً، ثمَّ أنَّ قرارَها الزواجَ منْ عُمرَ سوفَ يُشعِلُ حرباً تأكُلُ نيرانُها كلَّ شيءٍ حولَها، وفَضَّلَتْ أنْ تعيشَ معَ حُبٍّ وليدٍ هوَ ابنُها، فَيَكبُرَ ويَكبُرَ الحُبُّ معَهُ، لتُصبحَ قصةُ أملَ عِقداً يُزَيّنُ جِيدَها، فقد أنجَبَتْ مَن تُحِبُّ.

.

# الماءُ والفخَّارُ

عشرونَ عامًا مَضَتْ منذ أنْ وَضَعَتْ أمَلُ أولى خُطواتِها في بيتِ زَوجِها، البيتُ الطِّينِيُّ المصنوعُ من الحجارةِ غيرِ المُنْتَظِمَةِ وطبقةُ الطِّينِ المَمْزُوجَةُ بالقَشِّ وشَعْرِ الماعِزِ الذي يَكْسُوهُ. غُرْفَةٌ واحدةٌ مع مِدْفَأَةٍ طِينِيَّةٍ هي كُلُّ البيتِ ليسَ إلَّا، قِدْرٌ واحدٌ ومِلْعَقَتَانِ، ثلاثةُ صُحُونٍ مَعْدِنِيَّةٍ، وسُفْرَةٌ مِنَ القَشِّ، حَصِيرَةٌ مِنْ قَشِّ الحِنْطَةِ، ولِحَافٌ مَحْشُوٌّ بِصُوفِ الخِرَافِ وفِرَاشٌ. أمَّا جِهَازُهَا فكانَ صُنْدُوقًا خَشَبِيًّا كَبِيرًا سَوْفَ تَضَعُ فيهِ مَلَابِسَهَا التي حَمَلَتْهَا في صُرَّتِهَا عندما أَتَتْ إلى البيتِ وهي مَاشِيَةٌ وَرَاءَ زَوْجِهَا، بَعْدَ صَلَاةِ العِشَاءِ، لَا صَالَاتٌ ولا غِنَاءٌ، لا صَالُونَاتٌ ولا مَكْيَاجَاتٌ، إنَّمَا مِشْطٌ فَقَطْ، سَرَّحَ شَعْرَهَا الطَّوِيلَ المُسْدَلَ، التَّجَاعِيدُ حَوْلَ عَيْنَيْهَا الزَّرْقَاوَيْنِ، والوَشْمُ المَوْجُودُ تَحْتَ شَفَتِهَا السُّفْلَى، كانتْ قِصَّةً أُخْرَى، هي ابْنَةُ خَالَتِي التي تَزَوَّجَتْ عندما كنتُ أَحْبُو على رُكْبَتَيَّ، مِنْ زَوْجِهَا الذي كانَ دَاكِنَ البَشَرَةِ، فَقِيرًا لا يَمْلِكُ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ المَنْزِلِ وإسْطَبْلٍ يُرَبِّي فِيهِ بَغْلَتَهُ وزَوْجًا مِنَ الأَغْنَامِ، فَقَدْ كُنْتُ كَثِيرًا مَا آتِي لِمَنْزِلِهَا لِأَلْعَبَ عِنْدَهَا فَقَدْ كانتْ خَالَتِي هي الأُخْتَ الكُبْرَى وأُمِّي هي الصُّغْرَى، وكَثِيرًا مَا كانتْ تَفْتَحُ ذَلِكَ الصُّنْدُوقَ الخَشَبِيَّ وتُطْعِمُنِي مِنَ التِّينِ والزَّبِيبِ الذي فِيهِ، فَهيَ لَمْ تُرْزَقْ بِأَبْنَاءٍ، طِيلَةَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ، كانتْ تَحْنُو عَلَيَّ كَثِيرًا.

أمَّا زَوْجُهَا الفَقِيرُ الذي يَخْرُجُ في صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ ولا يَعُودُ حَتَّى المَسَاءِ، فَقَدْ يَأْتِي بِبِضْعَةِ أَرْغِفَةٍ مِنَ الخُبْزِ مع القَلِيلِ مِنَ التَّمْرِ أو أَيِّ أَمْرٍ آخَرَ، أو يَعُودُ بِأَرْغِفَةِ الخُبْزِ فَقَطْ، وأَوَّلُ أَمْرٍ يَفْعَلُهُ عِنْدَمَا يَدْخُلُ البيتَ يَهُمُّ إلى جَرَّةِ الفَخَّارِ التي صَنَعَتْهَا لَهُ، ويَشْرَبُ كَأْسًا أو كَأْسَيْنِ ويَتَّجِهُ بِالقُرْبِ مِنَ المَوْقِدِ الطِّينِيِّ ويَدُسُّ أَعْوَادَ الحَطَبِ تِبَاعًا حَتَّى يَزْدَادَ لَهِيبُ النَّارِ ويَتَدَفَّأَ بِهَا، قَلِيلُ الكَلَامِ، صَارِمُ المَشَاعِرِ، رُبَّمَا الصَّخْرُ الذي عَاشَرَهُ في أَرْضِهِ أو حُلْمُهُ بِطِفْلٍ يُدَاعِبُهُ هو السَّبَبُ، ورُبَّمَا أَمْرٌ آخَرُ لَا أَعْرِفُهُ. أمَّا ابْنَةُ خَالَتِي التي كانتْ طَائِعَةً ومُحِبَّةً لَهُ، تَأْتِي لَهُ بِوِعَاءٍ وتَضَعُ بِهِ المَاءَ السَّاخِنَ مَعَ القَلِيلِ مِنَ المِلْحِ، وفي بَعْضِ الأَحْيَانِ هي التي تَغْسِلُ لَهُ قَدَمَيْهِ، ثُمَّ تَذْهَبُ إِلَى الإِسْطَبْلِ وتُطْعِمُ البَغْلَةَ وزَوْجَ الأَغْنَامِ. سِرَاجُ الزَّيْتِ الذي يُضِيءُ الغُرْفَةَ الوَاسِعَةَ، رَغْمَ خُفُوتِ ضَوْئِهِ كانَ يظهر لَمَعَانَ عَيْنَيْ زَوْجِهَا وهو يُحَدِّقُ كَثِيرًا

بِالسَّقْفِ طَوَالَ اللَّيْلِ، يُطِيلُ التَّفْكِيرَ بِحُلْمِهِ بِذَلِكَ الصَّبِيِّ الذي يُدَاعِبُهُ ويَحْمِلُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ، لَمْ يُفَكِّرْ يَوْمًا بِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ هو السَّبَبُ، بَلْ يُقْنِعُ نَفْسَهُ دَائِمًا بِأَنَّها هي السَّبَبُ، لَمْ يُظْهِرْ لَهَا مَشَاعِرَهُ تِلْكَ، بَلْ يَنْفُخُ على السِّرَاجِ ويُطْفِئُهُ، حَتَّى يَتَصَاعَدَ خَيْطُ الدُّخَانِ الرَّفِيعُ مِنْهُ لِيُعْلِنَ انْقِضَاءَ سَهَرِ الصَّمْتِ، سَهَرِ الحُزْنِ المَكْبُوتِ والمَشَاعِرِ التي قَدْ دُفِنَتْ تَحْتَ قَدَمَيْ طِفْلٍ رَضِيعٍ يَحْلُمُ بِهِ. أمَّا زوجته التي كانتْ مَكْبُوتَةَ المَشَاعِرِ تَحْتَ وَطْأَةِ الفَقْرِ، ورَغِيفِ الخُبْزِ الهَارِبِ، فبقَلْبِ مَاءِ جَرَّةِ الفَخَّارِ دَفَنَتْ حُبَّهَا لِزَوْجِهَا، تِلْكَ الجَرَّةُ التي تَسْقِيهِ مِنْهَا كُلَّ يَوْمٍ، لَا تَتَكَلَّمُ عَنِ المَوْضُوعِ الذي قَدْ تَيَقَّنَتْ مِنْهُ مِنَ المَرْأَةِ التي كانتْ تُعْرَفُ قَدِيمًا بِالدَّايَةِ بِأَنَّ عَدَمَ المَقْدِرَةِ على إِنْجَابِ الأَطْفَالِ إِنَّمَا هو بِزَوْجِهَا، ولَكِنْ لَمْ تَكُنْ لِتَبُوحَ بِالسِّرِّ الذي تَعْرِفُهُ جَيِّدًا، وتَتَحَمَّلُ مَرَارَةَ الأَمْرِ، ومَرَارَةَ مَشَاعِرِ زَوْجِهَا المُتَحَجِّرَةِ، وكُلُّ الذي تَفْعَلُهُ تَمْلَأُ الجَرَّةَ بِالمَاءِ وتَضَعُ لَهُ الأَعْشَابَ الطِّبِّيَّةَ والعَسَلَ حَتَّى يُصْبِحَ طَعْمُهُ طَيِّبًا، وكُلَّمَا يَسْأَلُهَا عَنْ سَبَبِ حَلَاوَةِ المَاءِ تَضْحَكُ وتَبْتَسِمُ وتُجِيبُهُ بِأَنَّ حَلَاوَةَ المَاءِ مِنَ العَسَلِ فَقَطْ، فَيَشْرَبُ كَأْسَهُ ويَقْتَرِبُ مِنْ مَوْقِدِهِ، هَذَا جُلُّ مَا يَفْعَلُهُ.

وفي أَحَدِ الأَيَّامِ عندما كُنْتُ عِنْدَهَا، دَخَلَ زَوْجُهَا وجَلَسَ وهو يَنْظُرُ إلى السِّرَاجِ الزَّيْتِيِّ وقالَ: "اليَوْمَ جَاءَ الذي لَا يَصْدُرُ رَائِحَةً"، وهو يَسْخَرُ مِنَ الخَبَرِ الذي سَمِعَهُ، بَيْنَ الجِدِّ والمِزَاحِ، حَيْثُ سَمِعَ بِأَنَّ الدَّوْلَةَ سَوْفَ تَقُومُ بِمَدِّ خُطُوطِ الكَهْرُبَاءِ إلى القَرْيَةِ، مِمَّا جَعَلَها تَقُولُ بِعَفْوِيَّةٍ: "سَوْفَ يَنْتَقِلُ الضَّوْءُ عَبْرَ الأَسْلَاكِ المَعْدِنِيَّةِ، يَا لَهُ مِنْ تَقَدُّمٍ!"، ضَحِكَ زَوْجُهَا ووَضَعَ يَدَهُ على كَتِفِهَا قَائِلًا: "إِنَّهُ العِلْمُ يَا ابْنَةَ العَمِّ، وقَدْ سَمِعْتُ بِأَنَّهُمْ يَحْتَاجُونَ عُمَّالًا لِلْمُسَاعَدَةِ في بِنَاءِ تِلْكَ الخُطُوطِ، وهُمْ يُعْطُونَ أَجْرًا عَالِيًا، وسَوْفَ أَعْمَلُ عِنْدَهُمْ". فَضَحِكَتْ وقَالَتْ: "وَيُصْبِحُ لَدَيْنَا بَقَرَةٌ وَلَنْ تَشْتَرِيَ لِي ثَوْبًا جَدِيدًا وحِذَاءً؟". عَمَّ الضَّحْكُ أَجْوَاءَ الغُرْفَةِ، حَتَّى بَدَأَ زَوْجُهَا بِالسُّعَالِ، فَقَامَ إلى السِّرَاجِ وأَطْفَأَهُ، وأَدْخَلَ نَفْسَهُ تَحْتَ اللِّحَافِ الصُّوفِيِّ الثَّقِيلِ.

لَمْ تَمْضِ أَيَّامٌ كَثِيرَةٌ، حَتَّى أَتَتْ رِسَالَةٌ إلى مُخْتَارِ القَرْيَةِ تُخْبِرُهُ بِأَنَّ الدَّوْلَةَ سَوْفَ تَقُومُ بِمَدِّ خُطُوطِ الكَهْرُبَاءِ إلى القَرْيَةِ، وعَلَيْهِ أَنْ يُذِيعَ الخَبَرَ، ويَقُومَ بِتَسْجِيلِ الأَشْخَاصِ الذينَ يَوَدُّونَ العَمَلَ والمُسَاعَدَةَ في هَذَا العَمَلِ. وبالفِعْلِ

قَامَ وصَعِدَ إلى مِئْذَنَةِ الجَامِعِ الكَبِيرِ في القَرْيَةِ، وأَعْلَنَ عَنِ الخَبَرِ، وأَنَّ مَنْ يَوَدُّ العَمَلَ عَلَيْهِ أَنْ يُسَجِّلَ اسْمَهُ لَدَى مُخْتَارِ القَرْيَةِ. سَمِعَ زَوْجُها الخَبَرَ، وبِالفِعْلِ سَجَّلَ اسْمَهُ. عِنْدَ المَسَاءِ دَخَلَ إلى بَيْتِهِ، وأَحْضَرَ السِّرَاجَ الزَّيْتِيَّ ووَضَعَهُ أَمَامَهُ، وبَدَأَ يُخَاطِبُهُ: "بَعْدَ أَيَّامٍ سَوْفَ تُغَادِرُنَا، ويَحِلُّ مَكَانَكَ شَيْءٌ آخَرُ، أَكْثَرُ جَمَالًا، يَدُومُ طَوِيلًا، ولَنْ نُعَانِيَ مِنْ رَائِحَتِهِ". كانتْ ابْنَةُ خَالَتِي تَتَوَسَّدُ مِخَدَّةَ القَشِّ الغَلِيظَةَ، وهي تُحَدِّقُ بِزَوْجِهَا، بَيْنَ وَعْيٍ وعَدَمِ فَهْمٍ، بَيْنَ حُلُمٍ بِبَقَرَةٍ وثَوْبٍ جَدِيدٍ، انْتَابَهَا شُعُورٌ غَرِيبٌ، شُعُورٌ بِأَنَّ جَرَّةَ الفَخَّارِ سَوْفَ تَنْكَسِرُ ولَنْ تَعُودَ، شُعُورٌ بِأَنَّ المَاءَ الذي بِدَاخِلِهَا لَنْ يَبْقَى عَلَى حَلَاوَتِهِ وعُذُوبَتِهِ، شُعُورٌ لَا تَعْرِفُ مَصْدَرَهُ، رُبَّمَا مُجَرَّدُ تَخَيُّلَاتٍ لَيْسَ أَكْثَرَ. وبَقِيَتْ عَلَى هَذِهِ الحَالَةِ، حَتَّى أَغْمَضَتْ عَيْنَيْهَا، فَقَامَ زَوْجُهَا وغَطَّى جَسَدَهَا بِفَرْوَتِهِ الثَّقِيلَةِ، وجَلَسَ بِالقُرْبِ مِنْ مَوْقِدِهِ، ودَسَّ الكَثِيرَ مِنْ أَعْوَادِ الحَطَبِ، والتَفَتَ إِلَيْهَا وهو يُحَدِّثُ نَفْسَهُ عَنِ الطِّفْلِ الذي يَحْلُمُ بِهِ دَائِمًا، عَنْ شُعُورٍ يُرِيدُهُ ولَا يَعْرِفُهُ، عَنْ أَمْرٍ رُبَّمَا جَهِلَتْهُ نَفْسُهُ ورُوحُهُ تَطْلُبُهُ بِشِدَّةٍ. لَمْ يُطِلِ التَّفْكِيرَ كَثِيرًا، حَتَّى أَتَى بِالقُرْبِ مِنْهَا ودَسَّ نَفْسَهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا، ووَضَعَ يَدَهَا على صَدْرِهِ، فَرُبَّمَا كانَ حِينَئِذٍ يُرِيدُها أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ أَمْرٍ آخَرَ، فَضَرَبَاتُ قَلْبِهِ تَحْكِي حِكَايَةً بِلُغَةِ الدِّفْءِ المَكْتُومِ، الذي تَعْرِفُهُ كُلُّ رُوحٍ بَشَرِيَّةٍ، ولَكِنْ قَدْ تَجْهَلُهُ بَعْضُ الأَنْفُسِ، تَجْهَلُ التَّعْبِيرَ عَنْهُ، ولَكِنَّهَا خُلِقَتْ وهي تَعْرِفُهُ.

أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ واسْتَغْرَقَ في النَّوْمِ، ويَدُ زَوْجَتِهِ كانتْ على مَوْضِعِ قَلْبِهِ، تَقْبِضُ عَلَيْهِ وتُشْعِرُهُ بِدِفْءٍ رُبَّمَا كانتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ يَشْعُرُ بِذَلِكَ الدِّفْءِ، ولَمْ يَسْتَيْقِظْ مِنْ نَوْمِهِ إِلَّا عَلَى صَوْتِ المُخْتَارِ في الصَّبَاحِ البَاكِرِ، وطَرْقَاتِ يَدِهِ الغَلِيظَةِ على البَابِ الخَشَبِيِّ، بِأَنَّ عَلَيْهِ القُدُومَ إلى سَاحَةِ القَرْيَةِ، فَشَرِكَةُ الكَهْرُبَاءِ قَدْ وَصَلَتْ، وهي تُرِيدُ مَدَّ الخُطُوطِ إِلَى القَرْيَةِ، وأَنَّ اسْمَهُ مَقْبُولٌ لِلْعَمَلِ. لَبِسَ على عَجَلٍ، ووَضَعَ على رَأْسِهِ عِقَالَهُ وذَهَبَ مُسْرِعًا إلى سَاحَةِ القَرْيَةِ، التي كانتْ مُكْتَظَّةً بِالسَّيَّارَاتِ والعُمَّالِ، ووَسْطَ الجُمُوعِ كانت مُهَنْدِسَةٌ كَهْرُبَائِيَّةٌ هي المَسْؤُولَةُ عَنِ العَمَلِ. كانتْ قَدْ لَبِسَتْ لِبَاسًا جَمِيلًا وتَزَيَّنَتْ، ورَتَّبَتْ نَفْسَهَا جَيِّدًا، فَهِيَ رَئِيسَةُ العَمَلِ وصَاحِبَتُهُ. بِمُنْتَصَفِ الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمْرِهَا، ويَبْدُو أَنَّهَا مَا تَزَالُ عَزْبَاءَ ولَمْ تَتَزَوَّجْ. فَوَقَعَ بَصَرُهَا على زَوْجِ ابْنَةِ خَالَتِي، وأَعْجَبَهَا شَكْلُهُ وهَيْئَتُهُ، ورُبَّمَا قَدْ نَالَ رِضَاهَا، ولَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ أَيَّ أَمْرٍ حَصَلَ في دَاخِلِ تِلْكَ المَرْأَةِ. كانَ المُخْتَارُ بِقُرْبِهَا،

وهي تَقُومُ بِإِعْطَائِهِ التَّعْلِيمَاتِ وكَيْفِيَّةَ العَمَلِ، وتُحَدِّدُ دَوْرَ كُلِّ عَامِلٍ مِنَ العُمَّالِ، وتُقَسِّمُهُمْ إلى مَجْمُوعَاتٍ، أَشَارَتْ إليه بِأَنْ يَقْتَرِبَ مِنْهَا. وعِنْدَ هَذِهِ الحَالَةِ أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنَ الارْتِبَاكِ والخَوْفِ مِنْهَا، ولَكِنَّهُ اقْتَرَبَ وسَلَّمَ عَلَيْهَا، فَسَأَلَتْهُ عَنِ العَمَلِ الذي يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ. فَأَجَابَهَا بِأَنَّهُ لَا مُشْكِلَةَ بِأَيِّ عَمَلٍ تُكَلِّفُهُ بِهِ. فَسَلَّمَتْهُ الإِشْرَافَ على عَمَلِيَّاتِ الحَفْرِ. كانتْ هَذِهِ مُهِمَّةً جَيِّدَةً، فَلَيْسَ عَلَيْهِ العَمَلُ بِيَدَيْهِ، وكانَ الأَجْرُ جَيِّدًا. سَارَ العَمَلُ عَلَى أَفْضَلِ وَجْهٍ بِالنِّسْبَةِ لِعَمَلِيَّاتِ الحَفْرِ، ولكِنَّ تِلْكَ المَرْأَةَ كانتْ تَأْتِي مِرَارًا وتَكْرَارًا بِالقُرْبِ مِنْهُ، وتُحَاوِلُ الحَدِيثَ مَعَهُ. رُبَّمَا تُرِيدُ أَمْرًا آخَرَ مِنْهُ، ولَكِنَّهَا كانتْ عَلَى حَيَاءٍ مِنْهُ، وهو قَدْ أَحَسَّ بِأَنَّهَا تُرِيدُ التَّقَرُّبَ مِنْهُ، ولكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَتَجَرَّأَ على هَذَا الأَمْرِ. ومَعَ تَوَالِي الأَيَّامِ بَدَأَ يَشْعُرُ بِالرَّاحَةِ أَكْثَرَ وأَكْثَرَ تُجَاهَهَا، بَلْ أَصْبَحَ لَا يَعْتَبِرُهَا رَئِيسَةَ العَمَلِ، ورُبَّمَا كَانَ يُمَازِحُهَا ببَعْضِ الأَحْيَانِ، مِمَّا شَكَّلَ بَيْنَهُمَا إلفة ومَوَدَّةً عَلِمَ بِهَا مُخْتَارُ القَرْيَةِ، الذي كانَ مُحَنَّكًا ويَقْرَأُ نَظَرَاتِ الأَعْيُنِ، ولكِنَّهُ حِينَئِذٍ لَمْ يَقُلْ أَيَّ شَيْءٍ، بَلِ التَزَمَ الصَّمْتَ.

بَعْدَ شَهْرٍ مِنْ قُدُومِ الوَرْشَةِ انْتَهَى العَمَلُ، وتَفَقَّدَتِ المُهَنْدِسَةُ كَامِلَ مَوْقِعِ العَمَلِ، وأَخْبَرَتِ العُمَّالَ بِأَنَّهُ آخِرُ يَوْمٍ لِلْعَمَلِ. وآخِرُ عَمَلٍ قَامَتْ بِهِ ذَهَبَتْ إليه، وأَخْبَرَتْهُ بِأَنَّهَا عَزْبَاءُ وعَنْ مَكَانِ سَكَنِهَا. فَابْتَسَمَ في وَجْهِهَا، ولَمْ يَعْرِفِ التَّعْبِيرَ عَنْ حَالِهِ، فَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ، فَمَا كانَ مِنْهَا سِوَى أَنْ ضَحِكَتْ وغَادَرَتْ، وهي تَنْظُرُ إِلَيْهِ وهو يُبَادِلُهَا النَّظَرَاتِ. بَعْدَ انْتِهَاءِ اليَوْمِ عَادَ إلى بَيْتِهِ، وهو يَشْعُرُ بِسَعَادَةٍ مُفْرِطَةٍ. فَمَرَّ بِالقُرْبِ مِنْ جَرَّةِ الفَخَّارِ، ودُونَ قَصْدٍ مِنْهُ أَسْقَطَهَا، فَانْكَسَرَتْ وتَسَرَّبَ المَاءُ مِنْهَا، فَظَهَرَ في قَعْرِهَا تِلْكَ الأَعْشَابُ التي كانتْ تَضَعُهَا زوجته فَحَمَلَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وذَهَبَ إِلَيْهَا، وسَأَلَهَا عَنْ أَمْرِهَا. فَمَا كانَ مِنْهَا إِلَّا أَنْ أَخْبَرَتْهُ بِالحَقِيقَةِ التي تَعْرِفُهَا. بَدَأَ الشِّجَارُ بَيْنَهُمَا، فَهو لَا يَتَقَبَّلُ هَذَا الأَمْرَ، بَلِ اتَّهَمَهَا بِأَنَّهَا هي غَيْرُ القَادِرَةِ عَلَى الإِنْجَابِ. وبَيْنَ الصُّرَاخِ الدَّائِرِ بَيْنَهُمَا قَالَتْ لَهُ: "اذْهَبْ وتَزَوَّجْ، فَمَنْ سَوْفَ تَرْضَى بِرَجُلٍ عَقِيمٍ مِثْلِكَ؟" عِنْدَ هَذِهِ الكَلِمَةِ صَمَتَ، وكَأَنَّ الدُّنْيَا قَدْ أُغْلِقَتْ بِوَجْهِهِ، فَهيَ قَدْ أَصَابَتْ صَمِيمَهُ، وأَخْرَجَتْ كُلَّ دِفْءٍ كانَ يَشْعُرُ بِهِ في قَلْبِهِ. رُبَّمَا كانتْ كَلِمَةً غَيْرَ مَقْصُودَةٍ مِنْهَا، ولَكِنَّهَا كانتْ كَفِيلَةً بِأَنْ يَهِيمَ عَلَى وَجْهِهِ. فَانْسَحَبَ مِنَ الشِّجَارِ بِهُدُوءٍ كَسِيرِ الخَاطِرِ، وذَهَبَ إلى إِسْطَبْلِهِ،

وأَخْرَجَ البَغْلَةَ وسَاقَهَا إلى أَرْضِهِ البَعِيدَةِ. وطَوَالَ الطَّرِيقِ يَسْتَرْجِعُ مَا قَالَتْهُ بِحَقِّهِ ، وأَنَّهُ صَبَرَ عَلَى كُلِّ تِلْكَ السِّنِينَ مِنْ دُونِ طِفْلٍ، ومَرَّةً أُخْرَى يَسْتَرْجِعُ نَظَرَاتِ المُهَنْدِسَةِ، فَكَانَ ضَائِعًا بَيْنَ الأَمْرَيْنِ. فَفَكَّرَ بِنَفْسِهِ بِأَنْ يَخْطُبَ تِلْكَ المُهَنْدِسَةَ، فَحَقُّهُ أَنْ يَحْصُلَ عَلَى طِفْلٍ يُدَاعِبُهُ، ولكِنَّهُ كانَ يَغَصُّ بِسَنَوَاتِ عِشْرَتِهِ وحَيَاتِهِ مَعَ زوجته الوفية.

وعندما وَصَلَ إلى أَرْضِهِ، كانَ المُخْتَارُ قَدْ تَوَاجَدَ قَبْلَهُ في أَرْضِهِ التي تُجَاوِرُ أَرْضَهُ. فَقَصَّ عَلَيْهِ الحِكَايَةَ كَامِلَةً، فَأَخْبَرَهُ المُخْتَارُ بِأَنَّ تِلْكَ المُهَنْدِسَةَ قَدْ أَظْهَرَتِ اهْتِمَامًا كَبِيرًا بِهِ، وهي تُرِيدُهُ زَوْجًا لَهَا، ولكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ لِتُفْصِحَ عَنِ الأَمْرِ. فَأَجَابَهُ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ بِالأَمْرِ، ولكِنَّ عِشْرَتَهُ مَعَ ابْنَةِ خَالَتِي قَدْ صَعُبَتْ عَلَيْهِ. فَأَشَارَ عَلَيْهِ المُخْتَارُ بِأَنْ يَتَزَوَّجَهَا، وأَنَّ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ طِفْلٌ يَحْمِلُ اسْمَهُ. تَنَاقَشَا كَثِيرًا بِهَذَا الأَمْرِ حَتَّى المَسَاءِ، فَاقْتَنَعَ بِالفِكْرَةِ وقَرَّرَ بِأَنْ يَتَزَوَّجَهَا. وعندما وَصَلَ إلى بَيْتِهِ، ذَهَبَ تِلْقَائِيًّا إلى مَكَانِ الجَرَّةِ، فَلَمْ يَجِدْهَا. أمَّا زوجته فَلَمْ تَتَكَلَّمْ، وبَقِيَتْ عَلَى صَمْتِهَا. نَظَرَ إِلَيْهَا، ولكِنَّهُ لَمْ يَتَكَلَّمْ، بَلْ ذَهَبَ ودَسَّ نَفْسَهُ في فِرَاشِهِ بَعِيدًا عَنْهَا، وهو يُعَاوِدُ التَّفْكِيرَ بِكَلَامِ المُخْتَارِ حَتَّى يَتَثَبَّتَ مِنْ قَرَارِهِ. وبَعْدَ عِدَّةِ أَيَّامٍ ذَهَبَ إلى بَيْتِ المُخْتَارِ، وطَلَبَ إِلَيْهِ بِأَنْ يَذْهَبَ مَعَهُ لِيَخْطُبَ تِلْكَ المُهَنْدِسَةَ. اسْتَجَابَ المُخْتَارُ لِطَلَبِهِ، وذَهَبَ مَعَهُ فَخَطَبَهَا، فَوَافَقَتِ المُهَنْدِسَةُ، ولكِنِ اشْتَرَطَتْ بِأَنْ يُطَلِّقَ زَوْجَتَهُ. عِنْدَ هَذَا الشَّرْطِ تَوَقَّفَ قَلِيلًا، ولَمْ يَتَكَلَّمْ، وقَرَّرَ التَّفْكِيرَ بِالأَمْرِ. ثُمَّ عَادَ إلى بَيْتِهِ، وأَوَّلُ أَمْرٍ رَآهُ عِنْدَ دُخُولِهِ البَيْتَ جَرَّةُ فَخَّارٍ جَدِيدَةٌ بِهَا مَاءٌ حُلْوُ المَذَاقِ، وبِقُرْبِهَا زَوْجَتُهُ تَنْظُرُ إِلَيْهِ مَعَ ابْتِسَامَتِهَا الجَمِيلَةِ، ووَجْهٍ مُشْرِقٍ وكَأَنَّهُ القَمَرُ. مَلَأَتْ كَأْسَ مَاءٍ كَبِيرٍ، وقَالَتْ لَهُ: "خُذْ واشْرَبْ مِنَ المَاءِ والفَخَّارِ". فَضَحِكَ زَوْجُهَا كَثِيرًا، ومَعَ كُلِّ قَطْرَةِ مَاءٍ تَدْخُلُ جَوْفَهُ يَلُومُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ فَكَّرَ بِأَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً غَيْرَهَا. انْتَهَى الكَأْسُ، وانْتَهَى مَعَهُ التَّفْكِيرُ بِأَيِّ أَمْرٍ آخَرَ سِوَى البَقَاءِ مَعَ زَوْجَتِهِ إلى آخِرِ العُمْرِ. أمَّا أَنَا الذي كُنْتُ شَاهِدًا على أَغْلَبِ هَذِهِ الأَحْدَاثِ، فَقَدْ كُنْتُ أَنَالُ تَوْبِيخًا كَثِيرًا مِنْ زَوْجِهَا، لِأَنَّنِي كُنْتُ آخُذُ أَطْفَالَهَا وأَضَعُهُمْ أَمَامِي وخَلْفِي عَلَى ظَهْرِ الحِمَارِ، فَهوَ يُحِبُّهُمْ كَثِيرًا ويَخَافُ عَلَيْهِمْ. فَبَعْدَ تِلْكَ الحَادِثَةِ ولَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى أَنْجَبَتْ ابْنَةُ خَالَتِي تَوْءمًا جَمِيلًا، بَلْ كانتْ عَامًا بَعْدَ عَامٍ تُنْجِبُ لِزَوْجِهَا وَلَدًا حَتَّى مَلَأَتْ لَهُ البَيْتَ

أَوْلَادًا وبَنَاتٍ. وبَقِيَ عَلَى عَادَتِهِ كُلَّ يَوْمٍ يَأْتِي إلى جَرَّةِ الفَخَّارِ، فَيَشْرَبُ مِنْهَا المَاءَ مَمْزُوجًا بِالعَسَلِ، ويَلُومُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ فَكَّرَ بِأَنْ يَخُونَ عِشْرَتَهُ مَعَ ابْنَةِ خَالَتِي. أمَّا المَالُ الذي حَصَلَ عَلَيْهِ مِنْ عَمَلِهِ، فَقَدِ اشْتَرَى لَهَا ثِيَابًا كَثِيرَةً وبَقَرَةً. وهَكَذَا بَقِيَ الحُبُّ بَيْنَهُمَا مَا بَقِيَ المَاءُ والفَخَّارُ.

# صَرخَةُ أُختِي

لِمَاذَا يَا أُختِي مَا زِلتِ تَبكِينَ؟! هَل فَضَّلتِ البُكَاءَ عَلَى عَادَتِكِ مِن عَدمِ النِّسيَانِ؟ فَقِطعَةُ الحَلوَى الَّتِي سَرَقتُهَا مِنكِ وَافتَعَلنَا الشِّجَارَ مِن أَجلِهَا، جَعَلَتكِ تَبكِينَ كُلَّ هَذِهِ المُدَّةِ. مُجَرَّدُ عَشَرَةِ أَعوَامٍ مَضَت، لَيسَت بِالزَّمَنِ البَعِيدِ، فَذَاكِرَتُكِ القَوِيَّةُ لَا تَسمَحُ لَكِ بِالنِّسيَانِ. وَكَيفَ تَنسَى الأُختُ أَخَاهَا؟!

تِلكَ الذِّكرَيَاتُ الَّتِي تُعِيدُنِي إِلَى حُضنِكِ كُلَّ لَيلَةٍ، فَتَضحَكِينَ مَرَّةً وَتَبكِينَ عَشْرَ مَرَّاتٍ. فَكُلَّمَا نَظَرتِ إِلَى تِلكَ الزَّوَايَا، إِلَى ابنَةِ الجِيرَانِ، تَحْتَ تِلكَ النَّافِذَةِ، لَا بُدَّ لَكِ مِنَ البُكَاءِ.

دَعِينِي أُخبِرُكِ كُلَّ أَسرَارِي، وَأَعلَمُ جَيِّداً أَنَّكِ لَن تَبُوحِيَ لِأَحَدٍ. رُبَّمَا يَصِلُ بَوحِي إِلَيكِ، البَعضُ مِنهُ فَقَط، لِأَنَّ أَمَلَكِ بِلِقَائِي قَد انقَطَعَ وَلَم يَعُد لَهُ أَثَرٌ. فَأَنتِ مِثلُ البَقِيَّةِ؛ بَحَثتِ بِكُلِّ الزَّنَازِينِ وَلَم تَجِدِي أَيَّ أَثَرٍ. حَالُكِ كَحَالِ آلَافِ الأُمَّهَاتِ، أُمَّهَاتٍ وَخَالَاتٍ، عَمَّاتٍ وَجَدَّاتٍ، فَكُلُّ النِّسَاءِ هُنَّ أَقرَابِي.

عُدتِ إِلَى بَيتِنَا المَهجُورِ فَرحَةً المَسكُونِ بِالأَلَمِ، وَنَظَرَاتُ وَالِدَينَا قَد تَعَلَّقَت بِكِ بِأَن تُرجِعِينِي مَعَكِ. وَلَكِنَّكِ دَخَلتِ وَحِيدَةً، فَلَم يُصَدِّقَا وَخَرَجَا يَبحَثَانِ عَنِّي. لَا أَحَدَ! طَرِيقٌ خَاوِيَةٌ سِوَى مِن قِطَّتِي الصَّهبَاءِ وَفِرَاخِهَا الَّذِينَ كَبُرُوا.

دَخَلتِ إِلَى غُرفَتِنَا المُشتَرَكَةِ وَأَغلَقتِ البَابَ جَيِّداً تُعِيدِينَ مَا بَقِيَ لَكِ مِن ذِكرَيَاتٍ. لَا تُتعِبِي نَفسَكِ فِي القِصَّةِ، فَقَد كَانَ مَلَكٌ يَقِفُ مَعِي دَائِماً وَيَكتُبُ كُلَّ شَيءٍ، وَهَا هُوَ قَد أَخرَجَ تِلكَ الصَّحِيفَةَ وَبِهَا كُلُّ شَيءٍ....

لَم يَكُن أَحَدٌ عَلَى عِلمٍ بِأَنِّي أُحِبُّهَا وَأَختَلِقُ كُلَّ تِلكَ الأَعذَارِ الوَاهِيَةِ حَتَّى أَتَسَلَّلَ تَحْتَ نَافِذَتِهَا وَأُعطِيَهَا وَرَقَةً كُنتُ قَد كَتَبتُ بِهَا أَشوَاقَ اللَّيلِ. رُبَّمَا كُنتُ صَغِيراً عَلَى الحُبِّ حِينَها، وَلَكِن وَقَعتُ فِي حُبِّهَا وَلَم يَعلَم بِأَمرِنَا أَحَدٌ. رُبَّمَا كُنتِ تَعلَمِينَ بِأَمرِي وَلَكِنَّكِ لَم تُخبِرِي أَحَداً بِأَمرِي، بَل كُنتِ تَضحَكِينَ مِن تَصَرُّفَاتِي.

أَمَّا شِرَاءُ الخُبزِ وَإِصرَارِي عَلَى أَن أَذهَبَ وَآتِيَ بِهِ فَلَم يَكُن إِلَّا لِكَي أَرَاهَا. بِذَلِكَ اليَومِ المُثلِجِ لَم أَكُن أَعلَمُ أَنَّهُم قَد أَتَوا وَيُرِيدُونَ أَيَّ شَخصٍ وَإِن كَانَ

طِفلاً فَلَا يَهُمُّ. وَسَاقَنِي القَدَرُ لِأَن أَمُرَّ أَمَامَهُم وَمَعِي الكَثِيرُ مِن أَرغِفَةِ الخُبزِ. فَيَومَهَا كُنتُ أَحُومُ حَولَ بَيتِهَا فَرَآنِي وَالِدُهَا، وَلَم أَجِد عُذراً سِوَى سُؤَالِي لَهُم إِن كَانُوا يُرِيدُونَ الخُبزَ، فَصَدَّقَ وَالِدُهَا كَلِمَاتِي وَأَوصَانِي بِأَن آتِيَ لَهُم بِالخُبزِ.

وَبِالفِعلِ حَمَلتُ الكَثِيرَ مِنَ الخُبزِ وَمَرَرتُ بِجَانِبِهِم، فَأَوقَفُونِي وَاتَّهَمُونِي بِأَنَّ هَذَا الخُبزَ لَيسَ لِي، بَل سَوفَ آخُذُهُ لِلإِرهَابِيِّينَ عَلَى حَدِّ زَعمِهِم. رَغمَ بُكَائِي وَتَوَسُّلَاتِي فَلَا شَيءَ يُلَيِّنُ قُلُوبَهُم، وَأَلصَقُوا التُّهمَةَ لِي. فَكَبَّلُونِي بِالسَّلَاسِلِ وَكَأَنِّي وَحشٌ هَارِبٌ. لِمَ كُلُّ هَذَا؟ لَا أَعرِفُ. وَقَذَفُوا بِي دَاخِلَ سَيَّارَةٍ مِن سَيَّارَاتِهِمُ العَفِنَةِ.

تَأَخَّرتُ حِينَها كَثِيراً وَذَهَبَت أُمِّي لِلبَحثِ عَنِّي فَرَأَتْنِي. سَمِعتُ صَوتَهَا فَارتَدَّتِ الرُّوحُ لِجَسَدِي. لَم تُفَكِّر حِينَها بِأَنَّهَا آخِرُ مَرَّةٍ سَوفَ تَرَانِي بِهَا، فَسَأَلَتهُم أَينَ سَيَأخُذُونَنِي، فَقَالُوا: مُجَرَّدُ يَومٍ أَو يَومَينِ وَيُرجِعُونَنِي. قَلبُ الأُمِّ الَّذِي لَا يَعرِفُ الخُبثَ، البَرَاءَةُ وَحدَهَا هِيَ الَّتِي تَحكُمُهُ. عَادَت عَلَى صِدقِ كَلَامِهِم وَوَضَّبَت صُرَّةَ مَلَابِسَ شَتَوِيَّةٍ سَمِيكَةٍ، وَعَادَت مُسرِعَةً تَتَرَجَّاهُم بِأَن تُلبِسَنِي مِنهَا.

صَوتُ الصَّفعَةِ عَلَى وَجهِهَا كَانَ مِثلَ انفِجَارِ البُندُقِيَّةِ. لَم أَرَهَا، وَلَكِنَّ الصَّوتَ الخَافِتَ الَّذِي تَلَا تِلكَ الصَّفعَةَ، أَخبَرَنِي بِأَنَّهَا سَقَطَت عَلَى الطَّرِيقِ الإِسفَلتِيَّةِ. نَظَرَاتُهَا لَهُم، تَوَسُّلَاتُهَا وَبُكَاؤُهَا لَم يُغَيِّرَا مِنَ الأَمرِ شَيئاً، حَتَّى لَقَّمَ أَحَدُهُم البُندُقِيَّةَ وَصَرَخَ بِوَجهِهَا: إِن لَم تَعُدْ، سَوفَ يَجعَلُ مِن ثَلجِ الطَّرِيقِ أَحمَراً.

لَم تَهتَمَّ لِمَا سَوفَ يَحدُثُ، بَل حَاوَلَت، حَتَّى أَطلَقَ أَحَدُهُم النَّارَ عَلَى الطَّرِيقِ بِالقُربِ مِنهَا رَصَاصَةً. يَا لَيتَهَا أَتَت بِعَينِي وَلَم أَسمَعهَا. صَرَخَتُ وَشَتَمتُهُم، فَكَانَ عَقْبُ البُندُقِيَّةِ أَسرَعَ مِن تَكمِلَةِ صُرَاخِي. وَلَا أَعلَمُ مَا الَّذِي حَدَثَ، حَتَّى فَتَحتُ عَينَيَّ، فِي غُرفَةٍ مُختَلِطَةِ الأَجسَادِ، وَرَائِحَةٍ أَشبَهَ بِرَائِحَةِ الأَموَاتِ، رَائِحَةٌ مِثلُ رَائِحَةِ الكِبرِيتِ مُختَلِطَةٌ بِرَائِحَةِ الدَّهنِ المُحتَرِقِ.

صَحِيحٌ أَنِّي لَا أَرَى وَلَا أُبصِرُ النُّورَ، وَلَكِن أُحِسُّ بِحَرَارَةِ أَجسَادٍ وَبُرُودَةِ بَعضِهَا، وَأَحيَاناً بُرُودَةٍ وَحَرَارَةٍ بِجَسَدٍ وَاحِدٍ. حَاوَلتُ الكَلَامَ وَالصُّرَاخَ،

حَتَّى مَدَّ أَحَدُهُم يَدَهُ مِن وَسَطِ الظَّلَامِ وَأَغلَقَ فَمِي، وَهَمَسَ بِأُذنِي: إِن نَطَقتَ وَلَو بِحَرفٍ سَوفَ تَرَى المَوتَ اليَومَ. أَينَ أَنَا يَا اللهُ؟! يَدُ الرَّجُلِ عَلَى فَمِي وَدُمُوعِي الَّتِي أَغرَقَت يَدَيهِ. مَاذَا فَعَلتُ؟ هَل إِتيَانُ الخُبزِ جَرِيمَةٌ يُعَاقِبُ عَلَيهَا القَانُونُ؟!

لَا التَّوَسُّلُ يَنفَعُ وَلَا أَيُّ أَمرٍ يَخطُرُ بِبَالِ بَشَرٍ. تَحتَاجُ مُعجِزَةً مِنَ السَّمَاءِ لِتَنجُوَ. فَرَغمَ الجَوِّ الصَّقِيعِيِّ، لَا يُوجَدُ تَحتَ جَسَدِكَ مَا يَقِيهِ قَسَاوَةَ الأَرضِ، فَجَسَدُكَ لَا يَزَالُ مُعتَاداً عَلَى فِرَاشٍ بِقُربِ مِدفَأَةٍ، تِلكَ الَّتِي سَوفَ تُمْحَى مِن مُعجَمِ لُغَتِكَ، بَل مِن وُجُودِ حَيَاتِكَ الزَّائِلَةِ لَا مَحَالَةَ.

الجَسَدُ وَالعَقلُ البَشَرِيُّ الَّذِي وُضِعَت بِهِ مُعجِزَةُ الخَلقِ يَبدَأُ بِتَهيِئَةِ الجَسَدِ لِلصُّمُودِ. حَوَّاسُكَ تَعمَلُ بِكَامِلِ طَاقَتِهَا وَرُبَّمَا تَتَجَاوَزُ الحَدَّ، وَلَكِنَّهَا بِتِلكَ الغُرفَةِ مَهمَا حَاوَلتَ سَوفَ تَبقَى مَشلُولَةً عَنِ العَمَلِ سِوَى أُذنِكَ الَّتِي تَعمَلُ عَن بَقِيَّةِ حَوَّاسِكَ، فَيُمكِنُ لَهَا التِقَاطُ أَيِّ صَوتٍ. فَبِالرَّغمِ مِن كَونِكَ تَعيشُ بِفَرَاغٍ، وَلَكِن مِن كُلِّ الزَّوَايَا يَشُقُّ صَوتٌ وَاحِدٌ هَذَا الفَرَاغَ: صَوتُ صَرِيرِ الأَسنَانِ. فَالكُلُّ كَانَت أَسنَانُهُ تَتَرَاقَصُ إِمَّا لِشِدَّةِ الخَوفِ أَوِ البَردِ، أَو لِكِلَيهِمَا مَعاً.

مَرَّت سَاعَةٌ أَو أَكثَرُ وَلَا شَيءَ جَدِيدٌ، حَتَّى سَمِعتُ صَوتَ ذَلِكَ الحِذَاءِ يَزحَفُ عَلَى الأَرضِ، يَقتَرِبُ مِنَّا. بِحَرَكَةٍ وَاحِدَةٍ الجَمِيعُ كَانُوا عَلَى وُجُوهِهِم. لَم أَكُن أَعرِفُ القَوَاعِدَ حِينَها. تِلكَ اليَدُ ذَاتُهَا الَّتِي أَغلَقَت فَمِي دَفَعَتنِي بِعُنفٍ لِأَقَعَ عَلَى وَجهِي مُبَاشَرَةً. وَمِن نَافِذَةِ الزِّنزَانَةِ سَلَّطَ أَحَدُهُم ضَوءَ كَشَّافِهِ عَلَينَا ثُمَّ قَالَ بِلَهجَةٍ مُصطَنَعَةٍ: (وَلَا حَيَوَانٌ كَام فَطِيسَة عِندَكُم)؟ لِيَأتِيَ صَوتٌ مِن صَاحِبِ اليَدِ الَّتِي دَفَعَتنِي: ثَلَاثَةٌ سَيِّدِي. فَقَالَ بِنَفسِ تِلكَ اللَّهجَةِ الحَقِيرَةِ: هَاتُوهُم. فَتَحَرَّكَ اثنَانِ مِنَّا وَوَضَعُوا تِلكَ المَنَابِرَ بِبَطنِيَّةٍ وَأَخرَجُوهُم إِلَى الرَّدهَةِ.

مِن غَيرِ الحَقِّ لَنَا أَن نَقُولَ جُثَّةً أَو مَا شَابَهَ، فَهُم مَنَابِرُ لِلنُّورِ. وَمِن غَيرِ شُعُورٍ مِنِّي رَفَعتُ رَأسِي وَلِسُوءِ حَظِّي فَقَد رَآنِي البُوطُ العَسكَرِيُّ، فَجَرَّنِي مِن شَعرِي وَبَدَأَ الإِحتِفَالُ بِنَظَرِهِم. كُبِّلَت يَدَايَ لِوَرَاءِ ظَهرِي وَعُلِّقتُ بِسَقفِ غُرفَةٍ أُخرَى. وَأَتَى مَعَ الحِذَاءِ أَحذِيَةٌ أُخرَى وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنهُم يَحمِلُ بِيَدِهِ أَدَاةً

لِلتَّعذِيبِ مُختَلِفَةً عَنِ الأُخرَى: خُرطُومُ المِيَاهِ البِلَاستِيكِيُّ، كَبلُ الكَهرَبَاءِ الَّذِي طُوِيَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، وَحَبلٌ ثَخِينٌ. وَكُلٌّ اختَصَّ بِمِنطَقَةٍ مِن جَسَدِي؛ فَالخُرطُومُ عَلَى ظَهرِي وَالكَبلُ عَلَى بَطنِي وَصَدرِي، أَمَّا الحَبلُ فَكَانَ يَنزِلُ مِثلَ الصَّخرَةِ عَلَى رَأسِي.

بَدَأتُ أَصرُخُ وَأَبكِي بَل أُصدِرُ أَصوَاتاً غَرِيبَةً لَا أَعرِفُ مَا هِيَ، وَهُم يَزدَادُونَ بِضَربِهِم، حَتَّى فَقَدتُ صَوتِي تَمَاماً، وَلَم يَعُد صَوتٌ يَجُولُ بِالغُرفَةِ سِوَى صَوتِ الجَلدِ. وَلَم يَفرُغُوا مِنِّي حَتَّى تَعِبُوا. ثُمَّ أَتَى أَحَدُهُم وَأَمسَكَ بِشَعرِي وَشَدَّهُ بِقُوَّةٍ وَقَالَ بِسُخرِيَةٍ: (هَالْمَرَّة مَا رَح مُوَتَّك، مَا تَرفَع رَاسَك أَحسَن مَا خَلِّي الخَازُوق يَطلَع مِن قَحفَةِ رَاسَك). وَبَعدَهَا أَنزَلَنِي وَبَدَأَ يَركُلُنِي فَأَتَدَحرَجُ عَلَى الأَرضِيَّةِ الخَشنَةِ حَتَّى وَصَلتُ بَابَ الزِّنزَانَةِ. وَمَعَ رَكلَةٍ كَادَت تَكسِرُ ظَهرِي أَدخَلَنِي إِلَى الزِّنزَانَةِ. وَآخِرُ كَلِمَةٍ قَالَهَا لِي: اسمُكَ مِنَ الآنَ 747، إِن نَسِيتَهُ... شَتَمَ عِرضِي وَوَدَّعَنِي بِآخِرِ صَفعَةٍ عَلَى وَجهِي.

مَعدُومُ القُدرَةِ عَلَى الحَرَكَةِ وَلَا شَيءَ سِوَى الأَلَمِ، وَمَا يَزِيدُ أَلَمَكَ عَدَمُ مَقدِرَتِكَ عَلَى إِصدَارِ تَأَوُّهَاتِكَ، فَرُبَّمَا سَمِعَهَا بُوطٌ فَعِندَهَا سَوفَ تَتَمَنَّى المَوتَ وَلَا تَجِدُهُ. مُعظَمُ الفَتَرَاتِ كُنَّا فِي ظَلَامٍ دَامِسٍ وَلَكِن يُوجَدُ بَعضُ الوَقتِ يَكُونُ هُنَالِكَ نُورٌ لِفَترَةٍ مَحدُودَةٍ، فَرُبَّمَا يَتَكَرَّمُ عَلَينَا الجَلَّادُونَ وَيُشعِلُونَ الضَّوءَ لِفَترَةٍ مِنَ الزَّمَنِ، وَهُوَ مَا يَتَزَامَنُ مَعَ وَجبَةِ الطَّعَامِ الوَحِيدَةِ، وَمَرَّةً أُخرَى مَعَ فَترَةِ قَضَاءِ الحَاجَةِ.

أَمَّا الطَّعَامُ الَّذِي لَا يَكفِي فَأَراً، فَكَانَ يَأتِي أَحَدُهُم وَمَعَهُ سَطلٌ قَذِرٌ وَبِهِ بَعضُ البُرغُلِ المَسلُوقِ. فَإِن كَانَ الجَلَّادُ قَد شَرِبَ المَتَّةَ وَعُلبَةَ البِيرَةِ أَو كَمَا يَقُولُونَ العَرَقَ، فَيُمكِنُ أَن يُفرِغَهُ عَلَى البَابِ كُومَةً وَاحِدَةً. وَإِن لَم يَكُن بِمَزَاجٍ جَيِّدٍ فَسَوفَ يَرُشُّهُ عَلَى جَمِيعِ المُعتَقَلِينَ، فَيَجِبُ أَن تَلتَقِطَهُ حَبَّةً حَبَّةً وَرَاءَ حَبَّةٍ.

مَضَت فَترَةٌ طَوِيلَةٌ وَأَنَا لَا أَعرِفُ مَا هُوَ جُرمِي، وَلَا أَتَجَرَّأُ عَلَى قَولِ شَيءٍ. أُمضِي مُعظَمَ وَقتِي أَتَلَمَّسُ حَولِي بَحثاً عَن حَبَّةِ بُرغُلٍ، رُبَّمَا أُحَرّكُهَا بِفَمِي عِدَّةَ مَرَّاتٍ حَتَّى تَعلَقَ بِجَوفِ ضِرسِي المَكسُورِ الَّذِي اشتَدَّ أَلَمُهُ،

فَيَضِيعُ وَقتِي بَينَ البَحثِ عَن حَبَّةٍ أُخرَى وَبَينَ إِخرَاجِ الأُولَى ثُمَّ البَحثِ عَن حَبَّةٍ أُخرَى، حَتَّى أَقَعَ بِدَائِرَةٍ مُفرَغَةٍ مِن حَبَّاتِ البُرغُلِ وَأَلَمِ الضِّرسِ المَكسُورِ.

كُنَّا نَسمَعُ أَصوَاتاً نُكَذِّبُهَا أَحيَاناً وَنُصَدِّقُهَا أَحيَاناً أُخرَى، فَصَوتُ فَتَيَاتٍ يَأتِي مِن آخِرِ المَمَرِّ. فَلَم نَكُن نَتَصَوَّرُ بِأَنَّ أَعرَاضَنَا مَوجُودَةٌ. وَلَكِن مَا الَّذِي يُمكِنُ أَن تَفعَلَهُ؟! وَذَاتَ لَيلَةٍ شَدِيدَةِ البُرُودَةِ اشتَدَّ الصَّوتُ مِن ذَلِكَ الإِتِّجَاهِ. إِنَّهَا صَرَخَاتٌ، لَيسَت صَرَخَاتِ تَعذِيبٍ، فَالكُلُّ بَدَأَ يَصرُخُ، حَتَّى أَتَى الحِذَاءُ وَاتَّجَهَ نَحوَ ذَلِكَ المَكَانِ. نَعَم كُنَّا نَسمَعُ مَا يَقُولُهُ: فَتَحَ تِلكَ النَّافِذَةَ وَبَدَأَ بِشَتمِهِنَّ، لِتَقُولَ وَاحِدَةٌ مِنهُنَّ: لَدَينَا امرَأَةٌ تَلِدُ.

عِندَهَا وَكَأَنَّ الجَحِيمَ فَتَحَ أَبوَابَهُ وَأَخرَجَ الحِقدَ مِن دَاخِلِهِ، فَدَخَلَ لِدَاخِلِ الزِّنزَانَةِ، وَهُوَ يَركُلُ تِلكَ المَرأَةَ عَلَى بَطنِهَا مَعَ الكَثِيرِ مِنَ الشَّتَائِمِ، حَتَّى نَزَلَ ذَلِكَ الطِّفلُ وَصَرَخَ صَرخَةً وَاحِدَةً، لَا صَوتَ بَعدَهَا، مَاتَ مُبَاشَرَةً. أَمَّا تِلكَ المَرأَةُ فَلَم يَعُد لِصَوتِهَا أَيُّ وُجُودٍ. ثُمَّ خَرَجَ وَقَذَفَ بِشَيءٍ عَلَى الأَرضِيَّةِ. لَم نَعرِف مَا هُوَ، لِأَنَّ الإِرتِطَامَ كَانَ خَفِيفاً. ثُمَّ عَادَ وَمَعَهُ بَطنِيَّةٌ وَأَمَرَ اثنَتَينِ بِإِخرَاجِهَا. وَكُلُّ هَذَا وَنَحنُ نَشُمُّ رَائِحَةَ سِيجَارَتِهِ وَكَأَنَّ الَّذِي حَدَثَ مُجَرَّدُ حَادِثٍ طَبِيعِيٍّ.

وَبَعدَ يَومَينِ وَبِمَوعِدِ الطَّعَامِ، وُضِعَ الطَّعَامُ فِي البَابِ وَأَمَرَنَا بِأَن يَخرُجَ اثنَانِ مِنَّا لِيَأتِيَا بِهِ، فَتَبَرَّعتُ لِلخُرُوجِ. وَعِندَ وُصُولِي وَبِثَانِيَةٍ وَاحِدَةٍ أَخَذتُ الدَّلوَ بِيَدٍ وَعَينِي عَلَى الجِهَةِ الَّتِي صَدَرَ مِنهَا ذَلِكَ الصَّوتُ، فَعَلِمتُ أَنَّ الصَّوتَ لَم يَكُن إِلَّا صَوتَ ارتِطَامِ رَأسِ الطِّفلِ بِالأَرضِ. ثَانِيَةٌ وَاحِدَةٌ لِأَرَى ذَلِكَ الطِّفلَ وَقَد اجتَمَعَت عَلَى جَسَدِهِ مَجمُوعَةٌ مِنَ الجُرذَانِ وَهِيَ تَأكُلُهُ. لَا أُخفِي أَنَّ الرُّعبَ تَمَلَّكَنِي وَتَوَقَّفَ الزَّمَنُ وَتَسَمَّرَت أَرجُلِي لِقَسَاوَةِ المَشهَدِ وَلَكِن لِلكَبلِ الكَهرَبَائِيِّ حَدِيثٌ آخَرُ، فَقَد كَوَى ظَهرِي عِدَّةَ مَرَّاتٍ وَأَنَا مُنكَبٌّ عَلَى سَطلِ البُرغُلِ حَتَّى استَطَعتُ العَودَةَ بِهِ وَاستَطَعتُ أَن أَملَأَ يَدَيَّ كَجَائِزَةٍ لِي.

حَاوَلتُ أَن أَضَعَ الطَّعَامَ بِفَمِي وَمَا إِن اقتَرَبَ مِنهُ حَتَّى بَدَأتُ أَبكِي، وَمَا عُدتُ أَعرِفُ أَمراً آخَرَ سِوَاهُ. أُرِيدُ المَوتَ، فَهُوَ أَرحَمُ. تَمَنَّيتُ لَو أَنَّ كَبلَ

الكَهرَبَاءِ شَقَّ ظَهرِي وَقَضَى عَلَيَّ، وَلَكِن حَتَّى هَذِهِ لَم أَكُن أَستَطِيعُ الحُصُولَ عَلَيهَا....

أَحذِيَةٌ كَثِيرَةٌ تَتَعَاقَبُ عَلَى الدُّخُولِ فِي المُمَرَّاتِ المُظلِمَةِ، مِنهَا مَا كَانَ ذَا رَائِحَةٍ نَتِنَةٍ وَمِنهَا يَملِكُ رَائِحَةً يُمكِنُ القَولُ بِأَنَّهَا جَيِّدَةٌ. مِن خِلَالِ الرَّائِحَةِ فَقَط يُمكِنُ لَكَ التَّمييزُ بَينَ مَدَى الوَضَاعَةِ وَالقَذَارَةِ فِيمَا بَينَهُم. فَمَدَى الإجرَامِ وَقَسوَتِهِ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَدَى نَفَاذِ تِلكَ الرَّائِحَةِ. وَأَغلَبُ تِلكَ الرَّوَائِحِ لَا تَأتِي إِلَّا بِمُنتَصَفِ اللَّيلِ، هَذَا عَلَى تَقدِيرِنَا، فَنَحنُ لَا نَعرِفُ اللَّيلَ مِنَ النَّهَارِ، بَرزَخٌ بَينَ الحَيَاةِ وَالمَوتِ، وَلَكِن أَقرَبُ لِلمَوتِ مِنَ الحَيَاةِ...

كُلُّ وَاحِدٍ يَبتَدِعُ طَرِيقَةً يَقتُلُ الوَقتَ بِهَا. أَمَّا أَنَا فَقَد كُنتُ أَقتُلُ وَقتِي بِحَبَّاتِ البُرغُلِ الَّتِي كُنتُ أَجمَعُهَا بِرَاحَتِي. فَأَوَّلُ أَمرٍ أَعُدُّهَا، ثُمَّ أَبدَأُ بِأَكلِهَا وَاحِدَةً وَرَاءَ الأُخرَى. لَيسَ أَكلاً كَمَا يَعلَمُهُ الجَمِيعُ، فَيُمكِنُ أَن أُمضِيَ خَمسَ دَقَائِقَ فِي الحَبَّةِ الوَاحِدَةِ لِأَنِّي أُذِيبُهَا بِفَمِي. هَذِهِ طَرِيقَتِي الَّتِي اتَّبَعتُهَا...

مُنتَصَفُ أَحَدِ اللَّيَالِي وَلَا شَيءَ سِوَى رَائِحَةِ المَوتِ، اقتَرَبت رَائِحَةُ حِذَاءٍ آخَرَ. عِندَ اشتِمَامِكَ لِهَذِهِ الرَّائِحَةِ، تَزدَادُ ضَرَبَاتُ قَلبِكَ وَتَرتَعِدُ فَرَائِصُكَ، تُحَاوِلُ الهُرُوبَ إِلَى أُمنِيَةِ المَوتِ وَلَكِنَّكَ لَا تَجِدُهَا. اقتَرَبَ مِن نَافِذَةِ المَهجَعِ وَقَالَ: 747 إِنَّهُ أَنَا. فَلَم أَعرِف مَاذَا أَصنَعُ وَلَكِن غَرِيزَةُ البَقَاءِ عِندِي دَفَعَتنِي لِأَن أَضَعَ كَامِلَ حَبَّاتِ البُرغُلِ بِفَمِي وَآكُلَهَا دَفعَةً وَاحِدَةً، بَل ابتَلَعتُهَا مُبَاشَرَةً.

كَانَت القَاعِدَةُ العَامَّةُ، بِأَيِّ وَقتٍ يَأتِي البُوطُ عَلَيكَ أَن تَأخُذَ الأَرضَ مُنْبَطِحاً وَتَضَعَ يَدَيكَ عَلَى عَينَيكَ، وَهَذَا كُنتُ قَد تَعَلَّمتُهُ. ثُمَّ أَعَادَ القَولَ: 747. فَهَمَستُ بِكَامِلِ خَوفِي: أَنَا سَيِّدِي. فَاقتَرَبَ أَحَدٌ مَا وَوَضَعَ العِصَابَةَ عَلَى عَينِي وَجَرَّنِي إِلَى المَجهُولِ. فَإِمَّا أَن يَكُونَ طَرِيقُكَ نَحوَ الإِعدَامِ مُبَاشَرَةً، أَو إِلَى غُرفَةِ التَّحقِيقِ، وَهُوَ إِعدَامٌ وَلَكِن بِبُطءٍ تَتَمَنَّى الحُصُولَ عَلَيهِ بِأَسرَعِ وَقتٍ مُمكِنٍ.

وَكَانَ طَرِيقِي إِلَى غُرفَةِ التَّحقِيقِ. أَجلَسَنِي عَلَى كُرسِيٍّ مَعدَنِيٍّ بِهِ فَتحَةٌ فِي المُنتَصَفِ، وَبَدَأَ الآخَرُ بِالأَسئِلَةِ: كَم عَدَدُ المُسَلَّحِينَ الَّذِينَ كُنتَ تَأخُذُ الخُبزَ لَهُم؟ أَينَ يَسكُنُونَ؟ وَمَا هِيَ الأَسلِحَةُ الَّتِي يَملِكُونَهَا؟ أَيُّ أَسئِلَةٍ هَذِهِ؟! فَأَنَا لَا

أَعرِفُ شَيئاً عَنهَا، فَأَجَبتُهُ بِأَنَّ الخُبزَ لِعَائِلَتِي وَلَا أَعرِفُ عَن أَيِّ أَمرٍ يَتَحَدَّثُ. لَم يُكَلِّفْ نَفسَهُ إِعَادَةَ السُّؤَالِ، بَل بَدَأَ بِتَعذِيبِي فَأَحضَرَ شَمعَةً وَوَضَعَهَا تَحتِي بَعدَ أَن كَبَّلَنِي بِالكُرسِيِّ الَّذِي غُرِسَت أَرجُلُهُ فِي الأَرضِ. وَمَا إِن يُشعِلَهَا لَا تَنطَفِئُ إِلَّا بِمَوتِكَ، أَو أَن يَقطَعَ الحَرقُ مَجرَى البَولِ فَيَسِيلَ عَلَيهَا حَتَّى تَنطَفِئَ.

أَمَّا الخِيَارُ الأَوَّلُ فَهُوَ لَيسَ بِإِرَادَتِكَ، وَالثَّانِي يَجعَلُكَ تَختَرِعُ لُغَاتٍ فِي الصِّيَاحِ وَالأَلَمِ. الشَّمعَةُ تَحرِقُكَ وَمَا إِن يَحتَرِقُ الجِلدُ حَتَّى تَبدَأُ الطَّبَقَةُ الدُّهنِيَّةُ فِي الذَّوَبَانِ وَتَزِيدُ مِن اِشتِعَالِ الشَّمعَةِ، تِلكَ الطَّبَقَةُ الرَّقِيقَةُ، وَيَأتِي بَعدَهَا مَجرَى البَولِ فَيَبقَى مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ حَتَّى يَحتَرِقَ وَتَبُولَ عَلَى الشَّمعَةِ فَتَنطَفِئَ. وَاِستِمرَارُكَ فِي العَذَابِ يَعتَمِدُ عَلَى مِزَاجِيَّةِ الجَلَّادِ، وَرُبَّمَا لَن يَسأَلَكَ بَعدَهَا.

اِنطَفَأَتِ الشَّمعَةُ الَّتِي تَحتِي، وَأَصبَحتُ بِعَاهَةٍ لَن تَزُولَ أَبَداً، وَسَوفَ تَقضِي عَلَيَّ لَا مَحَالَةَ. ثُمَّ جَرَّنِي وَأَنَا مَغشِيٌّ عَلَيَّ وَقَذَفَنِي فِي الزِّنزَانَةِ كَقِطعَةِ اللَّحمِ المُحتَرِقَةِ، وَلَا شَيءَ مَعِي سِوَى كَمٍّ هَائِلٍ مِنَ الأَلَمِ الَّذِي لَا يَحتَمِلُهُ بَشَرٌ. كَانَ عَلَيَّ أَن أُبقِيَ سَاقَيَّ مَفتُوحَتَينِ، وَلِضِيقِ المَكَانِ فَلَم يَكُن مِن خِيَارٍ سِوَى أَن أَرفَعَهُمَا عَلَى كَتِفَي اِثنَينِ مِنَ الَّذِينَ مَعِي. أَمَّا تِلكَ النَّارُ المُشتَعِلَةُ بَينَ سَاقَيَّ فَهِيَ قِصَّةٌ لَن أَستَطِيعَ وَصفَهَا وَلَو دَوَّنتُهَا بِأَلفِ كِتَابٍ. وَمَا يَزِيدُ بِأَلَمِكَ قَطَرَاتُ البَولِ الأَشبَهُ بِالبِنزِينِ شَدِيدِ الإِشتِعَالِ. وَرَغمَ كُلِّ الأَلَمِ كَانَ عَلَيَّ كَتمُ أَلَمِي....

كَتَمتُ لِيَومٍ وَاحِدٍ أَو أَكثَرَ، ثُمَّ اِنفَجَرتُ بِأَكثَرِ كَلَامٍ يُخِيفُهُم وَيُرعِبُهُم، صَرَختُ بِأَعلَى صَوتِي: يَا اللهُ! وَمَا زِلتُ أُكَرِّرُهَا حَتَّى أَتَى كُلُّ سَجَّانٍ بِدَاخِلِ السِّجنِ، وَسَحَبُوا جَسَدِيَ المُتَآكِلَ وَلَم يُبقُوا وَسِيلَةَ تَعذِيبٍ إِلَّا وَاتَّبَعُوهَا عَلَى جَسَدِي، حَتَّى أَتَى كَبِيرُ الأَحذِيَةِ وَأَومَأَ بِرَأسِهِ بِأَمرِ إِعدَامِي. فَجَرَّنِي عَلْجٌ، مَسْخُ الوَجهِ، وَأَخَذَنِي تَحْتَ الدَّرَجِ وَسَحَبَ مِن فَجوَةٍ بِالمُنتَصَفِ إِبرَةً وَمَلَأَهَا بِالهَوَاءِ، وَغَرَسَهَا بِشِرِيَانِي، ثُمَّ دَفَعَهَا.

بِضعُ لَحَظَاتٍ لَا أَكثَرَ وَتَخرُجُ رُوحِي وَأَتَخَلَّصُ مِن عَذَابٍ بِجُرمِ شِرَاءِ الخُبزِ، لَكِن شَاءَتِ الأَقدَارُ أَن أَقبَى حَيّاً وَأُصَابَ بِشَلَلٍ كَامِلٍ، حَتَّى عَينَيَّ لَم

أَعُد أَستَطِيعُ إِطبَاقَهُمَا، لِأَكُونَ شَاهِداً، عَلَى آخِرِ جَرِيمَةٍ سَوفَ تَحصُلُ لِجَسَدِي. ظَنَّ العِلجُ أَنِّي فَارَقتُ الحَيَاةَ، فَأَخَذَ يَركُلُنِي عَلَى مَوضِعِ الحَرقِ، حَتَّى اِنفَجَرَ كَامِلُ الجُرحِ. وَلَم يَكتَفِ بِهَذَا، بَل سَحَبَنِي لِغُرفَةٍ أُخرَى وَوَضَعَنِي عَلَى لَوحٍ مَعدَنِيٍّ وَفَوقَهُ لَوحٌ آخَرُ، وَشَغَّلَ تِلكَ الآلَةَ، لِتَنزِلَ عَلَى جَسَدِي وَتَسحَقَنِي قِطعَةً وَرَاءَ قِطعَةٍ، وَعَظمَةً وَرَاءَ عَظمَةٍ. وَآخِرُ صَوتٍ سَمِعتُهُ صَوتُ اِنفِجَارِ جُمجُمَتِي. وَلَم أَصحُ بَعدَهَا حَتَّى صِرتُ فِي الجَنَّةِ.

أَمَّا دِمَائِي فَمِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّهَا اختَلَطَت بِمِيَاهِ نَهرِ بَردَى، فَيَحمِلُنِي حَتَّى تَرَى دِمَائِيَ النُّورَ وَأُعَطِّرَ ثَرَاكِ يَا دِمَشقُ. لَا تَحزَنِي يَا أُختِي فَأَينَمَا نَظَرتِ سَوفَ أَكُونُ مَوضِعَ نَظَرِكِ، فَأَنَا شَجَرَةُ الكَرَزِ وَالمِشمِشِ، وَأَنَا شَجَرَةُ اليَاسَمِينِ وَالنَّارَنجِ، أَنَا دِمَشقُ كُلُّهَا وَسُورِيَا كُلُّهَا. أَنَا الشَّهِيدُ الَّذِي قُتِلَ بِرَغِيفِ خُبزٍ مَرَّ أَمَامَ الطُّغَاةِ. أَنَا الَّذِي أَرَدتُ أَن أُحِبَّ فَكَانَ لِلحُبِّ رَأيٌ آخَرُ، فَقَد جَعَلَنِي مَوجُوداً، بَاقِياً مَا بَقِيَت دِمَشقُ....

.

# إِشْرَاقَةٌ فِي المَوْتِ

الفترةُ الزَّمَنِيَّةُ قَبْلَ انْبِلاجِ النُّورِ الأَبَدِيِّ في الصَّحْرَاءِ المُظْلِمَةِ التي تَوَالَتْ عَلَى رِمَالِهَا أَيَّامُ الظَّلَامِ بِمُنْتَصَفِ الظَّهِيرَةِ، أَيَّامٌ لَمْ يَكُنْ لِلْقَوْمِ سِوَى حَلِيبِ النُّوقِ شَرَابًا، وَشَعْرِ الشِّيَاهِ رِدَاءً. بِمُنْتَصَفِ البَيْدَاءِ، وَعَلَى قَيْظِ رِمَالِهَا، كَانَ قَوْمٌ جُلُّ اعْتِمَادِهِمْ عَلَى الذي يَبِيعُونَهُ وَيُتَاجِرُونَ بِهِ مَعَ الْبِلَادِ المُجَاوِرَةِ، فَالتِّجَارَةُ حِرْفَتُهُمُ الأَسَاسِيَّةُ. الجُلُودُ وَالتُّمُورُ، الْبُخُورُ وَالْعُطُورُ، هِيَ التي تَحْمِلُهَا نُوقُهُمْ ضِمْنَ قَوَافِلِ تِجَارَتِهِمْ. فَبِدَايَةُ مَوْسِمِ الرَّبِيعِ هِيَ مَوْعِدُ انْطِلَاقِ تِجَارَتِهِمْ. فَإِنْ كَانَ لَدَيْكَ مَا تَحْمِلُهُ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرٍ وَتَلْحَقُ بِالْقَافِلَةِ، فَأَنْتَ حِينَئِذٍ مِنَ الْقِلَّةِ فِي الْقَافِلَةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْكَ، فَعَلَيْكَ الِانْتِظَارُ.

سَارَتِ الْقَافِلَةُ فَجْرًا، وَذَلِكَ الرَّجُلُ يُحَدِّقُ بِهَا، يَحْمِلُ ضِمْنَ قَلْبِهِ غُصَّةَ عَدَمِ المَقْدِرَةِ عَلَى الذَّهَابِ مَعَهُمْ. ثُمَّ يُعِيدُ النَّظَرَ فِي وَجْهِ زَوْجَتِهِ، وَذَلِكَ الْوَشْمُ الذي زَيَّنَ ذَقْنَهَا تَحْتَ شَفَتَيْهَا، التي أَعَادَتِ الزَّمَنَ بِمَا نَطَقَتْ صَبِيحَةَ عُرْسِهَا: سِرْبُ حَمَامٍ يَحْمِلُ مَشَاعِلَ، يُقْذَفُ بِهَا عَلَى أَقْوَامٍ بِيضِ الْبَشَرَةِ، وَيَمْلِكُونَ سُيُوفًا قَدْ جَفَّتِ الدِّمَاءُ عَلَيْهَا زَمَنًا، وَكَانَ حَوْلَهَا أَطْفَالٌ قَدْ رَكِبُوا خُيُولًا حَتَّى انْطَلَقُوا وَلَمْ يَرْجِعُوا أَبَدًا، حَتَّى أَتَى طِفْلٌ لَا تَعْرِفُهُ وَأَخَذَ بِيَدَيْهَا، وَجَعَلَ فُرْسَانًا يَجْثُونَ أَمَامَهَا. حَاوَلَتْ تَفْسِيرَ رُؤْيَاهَا وَلَمْ تَقْدِرْ حَتَّى مَضَى الزَّمَنُ وَبَقِيَ مَا رَأَتْهُ مُجَرَّدَ قِصَّةٍ تُحَدِّثُ بِهَا نَفْسَهَا بَيْنَ الْحِينِ وَالآخَرِ...

ابْتَعَدَتِ الْقَافِلَةُ حَتَّى اخْتَفَتْ وَرَاءَ الْكُثْبَانِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا مَا تَرَاهُ عَيْنَاهُ المُتَحَسِّرَةُ. اقْتَرَبَتْ زَوْجَتُهُ، وَبِهُدُوءٍ جَلَسَتْ بِقُرْبِهِ تُحَدِّثُهُ: "إِنَّ لَكَ رِزْقًا لَنْ يَنَالَهُ الطَّيْرُ وَلَوْ كَانَ بِفَمِهِ، فَاصْبِرْ". ابْتَسَمَ الرَّجُلُ حَتَّى بَانَتْ نَوَاجِذُهُ وَأَيْقَنَ بِمَا قَالَتْهُ تِلْكَ المَرْأَةُ التي أَطْعَمَتِ الصَّحْرَاءَ كَبِدَهَا، وَسَقَتْهَا بِمَاءِ عَيْنَيْهَا. نَهَضَتْ مَعَ ابْتِسَامَةٍ عَلَى وَجْهِهِ أَنْسَتْهُ حُزْنَهُ، وَأَعَدَّتِ الطَّعَامَ لَهُ. أَمَّا الذي يَجُولُ بِخَاطِرِهَا فَكَيْفَ سَوْفَ تُؤَمِّنُ حِمْلَ النَّاقَةِ وَالْبَعِيرِ، فَذَهَبَتْ إِلَى عِنْدِ خَالِهَا الذي كَانَ يَعْتَبِرُهَا ابْنَةً لَهُ، وَاقْتَرَضَتْ مِنْهُ بَعْضَ الجُلُودِ وَعَدَدًا مِنْ قَوَارِيرِ الْعُطُورِ، وَبَعْضَ الْبُخُورِ وَقَلِيلًا مِنَ أَقْمِشَةِ الصُّوفِ التي غَزَلَتْهَا. ثُمَّ وَضَعَتْهَا بَيْنَ يَدَيْ زَوْجِهَا، وَقَدْ فَكَّتْ عِقَالَ النَّاقَةِ وَالْبَعِيرِ وَقَرَّبَتْهُمَا مِنْهُ مَعَ الْكَثِيرِ مِنَ الضَّحِكِ وَهِيَ تَقُولُ لَهُ: "تِلْكَ الْقَبَّرَةُ تَنْتَظِرُ عَوْدَتَكَ، فَلَعَلِّي أُوَاسِي

جَمْرَ قَلْبِي بِهَا، دَعْهَا تُحَلِّقْ بَعِيدًا وَتَجِدْ قُوتَ يَوْمِهَا". الْقَبَّرَةُ التي وَقَفَتْ عَلَى صَهْوَةِ حِصَانِهِ وَتَنْقُرُ قُرْصَ الشَّعِيرِ، حَلَّقَتْ بَعِيدًا وَرَاءَ عُشٍّ لَعَلَّهَا تَجِدُ فِرَاخَهَا التي ابْتَلَعَتْهَا رِمَالُ الصَّحْرَاءِ...

وَقْتُ الْفَجْرِ وَقَطَرَاتُ النَّدَى عَلَى أَوْرَاقِ الشِّيحِ وَالْحَرْمَلِ كَانَتْ أَذَانَ مَسِيرِهِ فِي بَيْدَاءَ لَا يَعْرِفُ أَيْنَ سَتَقُودُهُ، إِلَى مَجْهُولٍ أَمْ إِلَى بُقْعَةِ أَمَلٍ يَرْجُو بِهَا الرُّجُوعَ إِلَى زَوْجَتِهِ. سَرَجَ الْأَدْهَمَ وَأَخَذَ رُمْحَهُ مَعَهُ لِلْحِمَايَةِ. أَمَّا النَّاقَةُ وَالْبَعِيرُ فَقَدْ سَارَتَا وَرَاءَهُ مَعَ رِيحِ المِسْكِ الذي يَجُرُّ الْهَوَاءَ وَرَاءَهُمَا. وَلَمْ يَمْضِ أَكْثَرُ مِنْ يَوْمٍ عَلَى بِدَايَةِ المَسِيرِ حَتَّى أَحَسَّ نَفْسَهُ قَدْ تَاهَ الطَّرِيقَ، فَطَرِيقُ الصَّحْرَاءِ قَدِ انْتَهَتْ رَغْمَ عِلْمِهِ أَنَّ الطَّرِيقَ تَحْتَاجُ لِمَسِيرِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ حَتَّى الِانْتِهَاءِ مِنْهَا. بَيْنَ التَّرَدُّدِ بِالمُضِيِّ بِطَرِيقٍ مَجْهُولٍ وَعَدَمِ الْعَوْدَةِ خَاوِيَ الْيَدَيْنِ، قَرَّرَ المُضِيَّ وَمُوَاصَلَةَ الطَّرِيقِ. حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَنْطِقَةٍ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ قُرًى صَغِيرَةٍ مُتَنَاثِرَةٍ بَيْنَ الْجِبَالِ، وَيَسْكُنُهَا أَقْوَامٌ بِيضُ الْبَشَرَةِ، جَمِيلُو الْهَيْئَةِ وَالمَظْهَرِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَفْهَمَ لُغَتَهُمْ، وَلَا يُوجَدُ أَحَدٌ يُتَرْجِمُ لَهُ تِلْكَ اللُّغَةَ الْغَرِيبَةَ. وَمِنْ خِلَالِ أَسْفَارِهِ السَّابِقَةِ وَعِلْمِهِ بِأَنَّهُ قَدِ اتَّجَهَ شَمَالًا، عَلِمَ بِأَنَّهُ لَمْ يَحِدْ عَنْ مَسَارِهِ كُلِّيًّا، بَلِ انْحَرَفَ بَعْضَ الشَّيْءِ وَدَخَلَ مِنْ مَنْطِقَةٍ أُخْرَى. لَمْ يَكُنْ لِهَذَا الْأَمْرِ أَنْ يُوقِفَهُ عَنْ تِجَارَتِهِ، فَقَدِ اسْتَطَاعَ عَنْ طَرِيقِ بَعْضِ الْإِشَارَاتِ أَنْ يَبِيعَ بَعْضَ تِجَارَتِهِ. فَفَكَّرَ بِأَنْ يَسْتَمِرَّ فِي المَسِيرِ حَتَّى دَخَلَ إِلَى مَنْطِقَةٍ بِهَا قَصْرٌ حَجَرِيٌّ كَبِيرٌ لَمْ يَرَ مِثْلَهُ. كَانَ الْهُدُوءُ قَاتِلًا لِدَرَجَةِ أَنَّ قَلْبَهُ كَادَ يَنْقَلِعُ مِنْ صَدْرِهِ مِنْ هَذَا الصَّمْتِ. رَائِحَةُ الدُّخَانِ وَخُلُوُّ الْقَرْيَةِ مِنْ سَاكِنِيهَا أَوْجَسَتْهُ خِيفَةً. تَقَدَّمَ نَحْوَ الْقَصْرِ الْحَجَرِيِّ الذي كَانَ مُحْتَرِقًا وَمُدَمَّرًا، فَيَبْدُو أَنَّ مَعْرَكَةً قَدْ دَارَتْ رَحَاهَا هُنَا. فَتَرَجَّلَ وَأَرَادَ أَنْ يَتَفَحَّصَ المَكَانَ. بَدَأَ يَطُوفُ بِأَرْجَاءِ المَكَانِ بَاحِثًا عَنْ أَيِّ إِنْسَانٍ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ. اسْتَمَرَّ فِي طَوَافِهِ حَتَّى عَثَرَ عَلَى طِفْلٍ صَغِيرٍ، يَجْلِسُ فَوْقَ إِحْدَى صُخُورِ الْقَصْرِ، أَسْوَدِ الْوَجْهِ مِنْ أَثَرِ الدُّخَانِ، يَبْدُو عَلَيْهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ. اقْتَرَبَ مِنْهُ، لَكِنَّ الطِّفْلَ لَمْ يَنْهَضْ مِنْ مَكَانِ جُلُوسِهِ، بَلْ بَادَرَهُ بِنَظَرَاتٍ لَا تَصْدُرُ عَنْ طِفْلٍ بِعُمْرٍ بَيْنَ الْخَامِسَةِ وَالسَّادِسَةِ. حَاوَلَ الْحَدِيثَ مَعَهُ وَلَكِنْ لَمْ يُجِبْ، بَلِ اسْتَمَرَّ فِي التَّحْدِيقِ بِهِ. بَيْنَ تِلْكَ النَّظَرَاتِ الْكَسِيرَةِ التي لَا يَعْرِفُ جَبْرَهَا بِمُجَرَّدِ التَّحْدِيقِ بِهِمَا، تَذَكَّرَ الرِّمَالَ التي أَهَالَهَا عَلَى أَكْبَادِهِ الثَّلَاثَةِ، الَّذِينَ لَمْ يُكْمِلُوا

الْحُلْمَ، وَلَمْ يَعْرِفُوا النُّطْقَ بِاسْمِ الْحَيَاةِ حَتَّى أَخَذَتْهُمْ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا سِوَى وَدُودٍ كَسِيرَةِ الْفُؤَادِ، سَكَنَ الْجَمْرُ بِمُقْلَتَيْهَا زَمَنًا، وَأَدْهَمٍ خَالِصِ السَّلَالَةِ لَا يُفَارِقُهُ...

قُرْصُ الشَّعِيرِ الذي كَانَ عَلَى صَهْوَتِهِ، وَمَا تَزَالُ عَلَيْهِ أَثَرُ نَقَرَاتِ الْقَبَّرَةِ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ إِلَّا لِيَكُونَ لَهُ، لِذَلِكَ الصَّغِيرِ. فَقَدْ قَدَّمَهُ إِلَيْهِ لَعَلَّهُ يَأْكُلُهُ وَيُخَفِّفُ مِنْ جُوعِهِ الدَّفِينِ. أَمَّا ذَلِكَ الصَّمْتُ فَلَا يَكْسِرُهُ سِوَى تَكَسُّرِ أَجْزَاءِ الْقُرْصِ الْيَابِسِ تَحْتَ رَحَاهُ. وَبَيْنَ ذَلِكَ الصَّوْتِ وَصَمْتِ المَكَانِ أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ ذَلِكَ الصَّبِيَّ، فَحَمَلَهُ وَوَضَعَهُ أَمَامَهُ عَلَى رَقَبَةِ الْأَدْهَمِ، وَلَمْ يُبْدِ الصَّبِيُّ مُعَارَضَتَهُ فَيَبْدُو أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَهُ أَحَدٌ يَعْتَنِي بِهِ. أَرَادَ الرَّجُلُ مُتَابَعَةَ مَسِيرِهِ، وَلَكِنَّ الطِّفْلَ هَزَّ رَأْسَهُ بِعَدَمِ المُتَابَعَةِ، مِمَّا دَفَعَهُ لِمُعَاوَدَةِ التَّفْكِيرِ وَالْعُدُولِ عَنْ قَرَارِهِ، وَقَفَلَ رَاجِعًا. كَانَ قَدْ مَضَى عَلَى رِحْلَتِهِ فَتْرَةٌ لَمْ تَتَجَاوَزِ الْأُسْبُوعَ، وَتِجَارَتُهُ لَمْ يُبَعْ مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيلُ، وَلَكِنَّ ضَيَاعَهُ وَذَلِكَ الصَّبِيَّ أَجْبَرَاهُ عَلَى الْعَوْدَةِ. وَأَثْنَاءَ عَوْدَتِهِ، بَدَأَتْ نَفْسُهُ تُحَدِّثُهُ بِأَمْرِ ذَلِكَ الطِّفْلِ وَمَاذَا عَلَيْهِ أَنْ يَصْنَعَ بِهِ. هَلْ يَبِيعُهُ عَبْدًا أَمْ يُبْقِي عَلَيْهِ، فَحَالُهُ لَا تَسْمَحُ لَهُ أَنْ يَحْتَفِظَ بِهِ بَعْدَ كَسَادِ تِجَارَتِهِ، وَأَخْلَاقُهُ تُحَدِّثُهُ بِسُوءِ فِعْلِ بَيْعِهِ. وَبَيْنَ هَذِهِ المَشَادَّاتِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، حَتَّى مَرَّ عَلَيْهِ رَجُلَانِ ضَخْمَا الْجُثَّةِ، أَحَدُهُمَا يَحْمِلُ نَدْبَةً ظَاهِرَةً عَلَى وَجْهِهِ وَيَحْمِلُ مَلَامِحَ الشَّرِّ، أَمَّا الثَّانِي فَقَدْ كَانَ أَصْهَبَ الشَّعْرِ. عِنْدَهَا شَدَّ الطِّفْلُ قَبْضَتَهُ عَلَى فَخِذِ الرَّجُلِ، فَفَهِمَ خَوْفَهُ مِنْهُمَا. فَأَرَادَ أَنْ يُخَبِّئَهُ تَحْتَ عَبَاءَتِهِ، وَلَكِنَّهُمَا لَاحَظَا ذَلِكَ الْأَمْرَ، فَأَحَاطَا بِهِ وَكَأَنَّهُمَا يَعْرِفَانِ ذَلِكَ الصَّبِيَّ جَيِّدًا. اشْتَعَلَتِ النَّخْوَةُ وَالْحَمِيَّةُ بِصَدْرِهِ وَتَقَلَّدَ رُمْحَهُ. تَأَهَّبَ الْأَدْهَمُ وَبَدَأَ يَنْفُثُ زَفِيرًا مُحْتَرِقًا لَا يَهَابُ المَوْتَ. عَرَبِيُّ الدَّمِ وَالنَّسَبِ، حَمِيُّ الظَّهْرِ وَالْوَتَدِ، حَتَّى بَدَأَ بَيْنَهُمَا عِرَاكٌ وَجَالَ الصِّرَاعُ بَيْنَهُمَا. اسْتَطَاعَ الرَّجُلُ صَرْعَ الْأَصْهَبِ مِنْهُمَا، أَمَّا الثَّانِي فَقَدْ هَرَبَ مُبْتَعِدًا يُرِيدُ إِحْضَارَ جَمَاعَتِهِ. عِنْدَ هَذَا المَوْقِفِ، أَطْلَقَ الرَّجُلُ لِجَامَ النَّاقَةِ وَالْبَعِيرِ، وَأَطْلَقَ سَاقَيِ جَوَادِهِ لِلرِّيحِ، وَذَلِكَ الطِّفْلُ مُمْسِكٌ بِشَعْرِ الْجَوَادِ تَمَسُّكُهُ بِالْحَيَاةِ. اسْتَمَرَّ الرَّكْضُ سَاعَةً حَتَّى تَيَقَّنَ الرَّجُلُ أَنَّهُ قَدِ ابْتَعَدَ مَسَافَةً كَبِيرَةً. وَلِحُسْنِ حَظِّهِ، كَانَ قَدْ عَادَ بِطَرِيقٍ يَعْرِفُهَا.

هَدَأَتْ نَفْسُهُ مِنَ الْأَمْرِ الذي مَرَّ عَلَيْهِ، وَبَدَأَ يُعِيدُ تَفَاصِيلَ المَوْقِفِ الذي حَدَثَ مَعَهُ. هَلْ هُمْ لُصُوصٌ يُرِيدُونَ تِجَارَتَهُ أَمْ يُرِيدُونَ الصَّبِيَّ؟ تَذَكَّرَ كَيْفَ شَدَّ الطِّفْلُ عَلَى فَخِذِهِ مِنَ الْخَوْفِ. فَبَدَأَ صِرَاعٌ دَاخِلَ نَفْسِهِ: تِجَارَتُهُ التي خَسِرَهَا، وَالمُصِيبَةُ التي ابْتُلِيَ بِهَا. لَا بُدَّ أَنَّهُمْ سَوْفَ يُلَاحِقُونَهُ، وَرُبَّمَا لَوْ عَادَ إِلَى قَبِيلَتِهِ سَوْفَ يَسْتَمِرُّونَ فِي الْبَحْثِ. بِلَحْظَةٍ مِنَ الْغَضَبِ وَالْخَوْفِ أَنْزَلَ الطِّفْلَ عَلَى الْأَرْضِ وَصَرَخَ فِي وَجْهِهِ: "اذْهَبْ وَلَا تَعُدْ، لَا أُرِيدُكَ!". لَكِنَّ الطِّفْلَ، وَبِنَظَرَاتِهِ، لَمْ يَخَفْ وَاقْتَرَبَ وَتَعَلَّقَ بِطَرَفِ ثَوْبِهِ. عِنْدَ هَذَا المَوْقِفِ أَخَذَهُ مِنْ يَدِهِ وَأَعَادَهُ إِلَى مَكَانِهِ عَلَى رَقَبَةِ الْجَوَادِ وَتَابَعَ فِي الطَّرِيقِ مُسْرِعًا. حَاوَلَ بِطَرِيقِ عَوْدَتِهِ أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقًا آخَرَ، وَكَانَ يُخْفِي أَثَرَهُ. وَبَعْدَ يَوْمَيْنِ عَادَ إِلَى زَوْجَتِهِ التي كَانَتْ تَجْلِسُ بِقُرْبِ خَيْمَتِهَا وَحِيدَةً. اسْتَغْرَبَتْ مِنْ عَوْدَةِ زَوْجِهَا بَاكِرًا فَلَمْ يَمْضِ الْكَثِيرُ عَلَى ذَهَابِهِ. أَيْنَ النَّاقَةُ وَالْبَعِيرُ؟ وَمِنْ أَيْنَ أَتَى ذَلِكَ الطِّفْلُ؟ كُلُّهَا أَسْئِلَةٌ تَسَاقَطَتْ عَلَى رَأْسِهَا دُفْعَةً وَاحِدَةً.

نَزَلَ الرَّجُلُ مِنْ صَهْوَةِ حِصَانِهِ وَدَخَلَ الْخَيْمَةَ. كَانَ التَّعَبُ بَادِيًا عَلَى وَجْهِهِ. أَمَّا الطِّفْلُ فَقَدِ انْزَوَى وَحِيدًا بِزَاوِيَةِ الْخَيْمَةِ لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يُحَدِّثُ أَيَّ أَحَدٍ. قَصَّ عَلَى زَوْجَتِهِ الذي حَدَثَ مَعَهُ: مِنْ خَسَارَتِهِ لِتِجَارَتِهِ، وَكَيْفَ ابْتُلِيَ بِذَلِكَ الطِّفْلِ الذي لَا يَتَكَلَّمُ. هَلْ هُوَ أَبْكَمُ أَمْ أَنَّهُ لَا يُجِيدُ لُغَتَهُمْ؟ قَالَتْ زَوْجَتُهُ: "هُوَ خَيْرٌ لَنَا، عُدْتَ سَالِمًا، أَمَّا التِّجَارَةُ فَيُمْكِنُ تَعْوِيضُهَا، وَالطِّفْلُ هِبَةٌ مِنَ السَّمَاءِ لَنَا، فَقَدْ عَوَّضَتْنَا بَدَلَ أَوْلَادِنَا الَّذِينَ مَاتُوا". ثُمَّ ذَهَبَتْ إِلَى عِنْدِهِ وَاحْتَضَنَتْهُ مِثْلَ أُمِّهِ التي فَقَدَهَا، وَأَخَذَتْهُ حَتَّى تَغْسِلَهُ وَتُذْهِبَ أَثَرَ الدُّخَانِ وَالْأَوْسَاخِ عَنْهُ. أَرَادَتْ أَنْ تَخْلَعَ مَلَابِسَهُ وَلَكِنَّهُ قَاوَمَ وَحَاوَلَ مَنْعَهَا مِنْ خَلْعِ قَمِيصِهِ. فَهُنَاكَ أَمْرٌ يُرِيدُ إِخْفَاءَهُ، يَبْدُو أَنَّهُ أَمْرٌ مُهِمٌّ. فَفَهِمَتِ المَرْأَةُ ذَلِكَ، وَاكْتَفَتْ بِغَسْلِ وَجْهِهِ وَأَطْرَافِهِ، وَأَخَذَتْهُ وَوَضَعَتْهُ فِي حِجْرِهَا حَتَّى غَطَّ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ.

ثُمَّ كَشَفَتْ عَنْ ظَهْرِهِ الذي امْتَنَعَ مِنْ غَسْلِهِ، فَرَأَتْ عَلَامَةً عَلَى طُولِ ظَهْرِهِ، وَشْمٌ غَرِيبٌ، إِنَّهَا عَلَامَةٌ غَرِيبَةٌ فَلَمْ تَرَ مِثْلَهَا أَبَدًا. فَكَّرَتْ فِي نَفْسِهَا أَنْ تَذْهَبَ إِلَى عِنْدِ كَبِيرَةِ النِّسَاءِ فِي الْقَبِيلَةِ، فَهِيَ عَلَى عِلْمٍ وَدِرَايَةٍ كَبِيرَةٍ. ذَهَبَتْ إِلَى عِنْدِهَا وَقَصَّتْ عَلَيْهَا قِصَّةَ زَوْجِهَا وَأَمْرَ ذَلِكَ الطِّفْلِ، وَأَخَذَتْهَا لِرُؤْيَةِ تِلْكَ الْعَلَامَةِ عَلَى ظَهْرِ ذَلِكَ الصَّبِيِّ. وَعِنْدَ رُؤْيَةِ تِلْكَ الْعَلَامَةِ، جَحَظَتْ عَيْنَاهَا، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُبْدِ أَيَّ أَمْرٍ غَيْرِ اعْتِيَادِيٍّ، وَأَخْبَرَتِ المَرْأَةَ أَنَّهُ مُجَرَّدُ وَشْمٍ

عَادِيٍّ، بِالرَّغْمِ مِنْ عِلْمِهَا بِأَمْرِ ذَلِكَ الْوَشْمِ وَمَنْ يَكُونُ، إِلَّا أَنَّهَا آثَرَتِ الصَّمْتَ عَلَى ذَلِكَ، فَلَوِ انْتَشَرَ الْخَبَرُ لَرُبَّمَا كَانَتْ نِهَايَتَهُ أَوْ نِهَايَةَ الْقَبِيلَةِ مَعًا. بَدَأَ التَّفْكِيرُ يَقْتُلُ رَأْسَهَا بِوَسِيلَةٍ تُبْعِدُهُ عَنِ الْحِمَى، فَوُجُودُهُ سَوْفَ يُسَبِّبُ مَشَاكِلَ لَهُمْ، لَا طَاقَةَ لَهُمْ عَلَى حَمْلِهَا. كَانَتْ تَتَوَالَى زِيَارَاتُهَا لَهُ وَهِيَ تَرْقُبُهُ وَعُيُونُهَا مُنْصَبَّةٌ عَلَيْهِ، لَا تُغَادِرُهُ، وَلَكِنْ عَلَى صَمْتِهَا بَقِيَتْ وَلَمْ تُخْبِرْ أَحَدًا. أَمَّا الرَّجُلُ وَزَوْجَتُهُ، فَازْدَادَ تَعَلُّقُهُمَا بِهِ حَتَّى أَصْبَحَ كَابْنٍ لَهُمَا. وَبَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ، بَدَأَ يَتَعَلَّمُ لُغَتَهُمْ، وَعَادَاتِهِمْ. اسْتَبْدَلَ ثَوْبَهُ الْحَرِيرِيَّ بِثَوْبِ الصُّوفِ، وَاحْتَرَقَتْ بَشَرَتُهُ تَحْتَ لَهِيبِ الشَّمْسِ الْحَارِقَةِ حَتَّى بَدَا كَأَنَّهُ ابْنٌ لَهُمَا. ذَكَاؤُهُ الْمُتَّقِدُ، وَرَجَاحَةُ عَقْلِهِ بَدَأَتْ تَظْهَرُ عَلَيْهِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ. أَصْبَحَ يَرْكَبُ الْخَيْلَ وَيُنَادِي عَلَى المَرْأَةِ وَزَوْجِهَا بِأُمِّي وَأَبِي، يَخْرُجُ مَعَ الرَّجُلِ إِلَى الصَّيْدِ وَيَتَعَلَّمُ اسْتِعْمَالَ السَّيْفِ وَالْقَوْسِ وَالرُّمْحِ.

بِهَذِهِ الْأَثْنَاءِ كَانَ الرَّجُلُ ذُو النَّدْبَةِ يَبْحَثُ عَنْهُ فَلَا يَهْدَأُ لَهُ بَالٌ حَتَّى يَعْثُرَ عَلَيْهِ لِيَقْتُلَهُ. كَانَ مِنْ عَادَةِ الْقَبِيلَةِ أَنْ تُرْسِلَ الْأَطْفَالَ الْغُرَبَاءَ مَعَ الْأَبِ إِلَى الصَّحْرَاءِ وَلَا يُعْتَرَفُ بِانْتِمَائِهِمْ حَتَّى يَقْتُلُوا ضَبُعًا كَبِيرًا وَيَأْتُوا بِجِلْدِهِ. جَرَتْ هَذِهِ الْعَادَةُ مُنْذُ الْقِدَمِ، تِلْكَ الرِّحْلَةُ الْخَطِرَةُ التي لَمْ يَعُدْ مِنْهَا رِجَالٌ كَثِيرُونَ. فَفَكَّرَتِ المَرْأَةُ الْكَبِيرَةُ بِهَذِهِ الْوَسِيلَةِ لَعَلَّهَا تَتَخَلَّصُ مِنَ الصَّبِيِّ بِأَقَلِّ ضَرَرٍ مُمْكِنٍ، فَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَّا أَنْ ذَهَبَتْ إِلَيْهِمْ وَطَلَبَتْ مِنْهُمْ إِحْضَارَ شَرْطِ الِانْتِمَاءِ وَالثِّقَةِ. وَافَقَ الرَّجُلُ عَلَى الشَّرْطِ، وَخَرَجَ إِلَى سَاحَةِ الْقَبِيلَةِ وَجَمَعَ النَّاسَ وَأَشْهَدَهُمْ بِأَنَّ الطِّفْلَ هُوَ ابْنٌ لَهُ. وَبِهَذَا أَصْبَحَ الرَّجُلُ أَبَا الطِّفْلِ، وَلَمْ يَبْقَ سِوَى أَنْ يُحْضِرَ جِلْدَ الضَّبُعِ مَعَ الصَّغِيرِ، إِثْبَاتًا وَبُرْهَانًا. فَسَرَجَ الْأَدْهَمَ وَأَعْطَى الصَّغِيرَ مُهْرًا يَرْكَبُهُ، وَخَرَجَا بِرِحْلَتِهِمَا.

تَزَامَنَ هَذَا الْأَمْرُ بِأَنْ أَتَى الرَّجُلُ ذُو النَّدْبَةِ يَبْحَثُ عَنِ الطِّفْلِ. دَخَلَ الْقَبِيلَةَ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ التَّوَاصُلَ مَعَ أَهْلِهَا، فَأَشَارَ لَهُمْ بِأَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ طِفْلٍ وَيُشِيرُ إِلَى ظَهْرِهِ وَذَلِكَ الْوَشْمِ، وَلَكِنَّ أَحَدًا لَمْ يَرَ ذَلِكَ الْوَشْمَ سِوَى أُمِّهِ وَتِلْكَ المَرْأَةِ الْعَجُوزِ. سَأَلَ وَأَشَارَ كَثِيرًا وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى، حَتَّى أَشَارَ عَلَيْهِ الَّذِينَ مَعَهُ بِالمُغَادَرَةِ، فَارْجَحَ الْأَمْرَ أَنَّهُ مَاتَ فِي هَذِهِ الصَّحْرَاءِ الْكَبِيرَةِ. فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ رَجَعَ مَعَ يَقِينِهِ بِأَنَّ الطِّفْلَ قَدْ مَاتَ وَانْتَهَى أَمْرُهُ. وَبَعْدَ رَحِيلِهِ، ذَهَبَتِ المَرْأَةُ الْعَجُوزُ تُخْبِرُ أُمَّهُ وَتُوصِيهَا بِأَلَّا يَرَى أَحَدٌ ذَلِكَ الْوَشْمَ أَوْ يَعْلَمَ بِأَمْرِهِ.

"انْظُرِي، لَوْ رَأَوْهُ بَيْنَنَا لَفُتِحَتْ عَلَيْنَا أَبْوَابُ الْجَحِيمِ". حَاوَلَتْ أُمُّهُ الِاسْتِفْسَارَ عَنِ الْأَمْرِ، لَكِنَّ المَرْأَةَ لَمْ تُجِبْهَا وَرَحَلَتْ وَهِيَ تُوصِيهَا بِالْأَمْرِ. اكْتَفَتْ بِكَتْمِ مَا سَمِعَتْ وَكُلُّهَا رَجَاءٌ بِأَنْ يَعُودَ زَوْجُهَا وَمَعَهُ جِلْدُ الضَّبُعِ وَيُصْبِحَ الطِّفْلُ ابْنًا لَهُمَا.

...الطِّفْلُ عَلَى مُهْرِهِ وَالرَّجُلُ عَلَى أَدْهَمِهِ. وَمِنْ بَعِيدٍ ضَبُعٌ ضَخْمُ الْجُثَّةِ، بَارِزُ النَّابِ، وَكَأَنَّهُ ثَوْبُ جَانٍّ أَوْ عِفْرِيتٌ فِي صَحْرَاءِ اللَّيْلِ. لَكِنَّ الْفَتَى لَمْ يَخَفْ بَلْ هَجَمَ نَحْوَهُ. رُبَّمَا حَيَاتُهُ فِي الصَّحْرَاءِ جَعَلَتْهُ شُجَاعًا، أَوْ أَنَّ الدِّمَاءَ التي تَجْرِي بِعُرُوقِهِ دِمَاءُ فَارِسٍ لَا يُشَقُّ لَهُ غُبَارٌ. تَعَجَّبَ الرَّجُلُ مِنْ هَذَا الْإِقْدَامِ وَفَرِحَ بِهِ، عَيْنُهُ تَنْطِقُ قَبْلَ فَمِهِ مِنَ الذي رَآهُ. اقْتَرَبَا مِنَ الضَّبُعِ وَطَعَنَهُ الرَّجُلُ بِرُمْحِهِ حَتَّى صَرَعَهُ، ثُمَّ احْتَزَّ رَأْسَهُ وَبَدَأَ بِسَلْخِ جِلْدِهِ. أَمَّا الْفَتَى فَأَخَذَ يَغْمِسُ يَدَهُ بِدَمِ الضَّبُعِ وَيَمْسَحُ وَجْهَهُ، وَاتَّجَهَ شَمَالًا وَجَزَّ عَلَى أَسْنَانِهِ كَأَنَّهُ يَسْتَرْجِعُ أَمْرًا مَا، صُورَةَ مَشْهَدٍ عَالِقٍ بِذِهْنِهِ. كَيْفَ لَهُ هَذَا الْحِقْدُ؟ وَأَيُّ أَمْرٍ يَشْحَذُهُ؟ تِلْكَ النَّظَرَاتُ هِيَ ذَاتُهَا التي رَآهَا عِنْدَمَا كَانَ جَالِسًا عَلَى حِجَارَةِ الْقَصْرِ المُدَمَّرِ. بَعْدَ الِانْتِهَاءِ مِنْ سَلْخِ الضَّبُعِ، أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَحْمِلَهُ عَلَى صَهْوَةِ حِصَانِهِ، وَلَكِنَّ الْفَتَى لَمْ يَشَأْ هَذَا الْفِعْلَ، بَلْ فَتَحَ الْجِلْدَ وَوَضَعَهُ عَلَى جَسَدِهِ مِثْلَ الرِّدَاءِ، فَكَانَ أَشْبَهَ بِالمَوْتِ الذي يُرِيدُ الِانْتِقَامَ. سَارَا بِطَرِيقِهِمَا حَتَّى وَصَلَا إِلَى الْقَرْيَةِ، وَأَنْزَلَ الْفَتَى الْجِلْدَ بِسَاحَةِ الْقَرْيَةِ، وَالرَّجُلُ رَافِعًا يَدَهُ مُعْلِنًا أَنَّ الْفَتَى أَصْبَحَ وَلَدًا لَهُ، وَالشَّرْطَ قَدْ تَحَقَّقَ.

تَوَالَتِ الْأَيَّامُ وَدَارَتْ دَوْرَتُهَا، وَالْفَتَى تَعَلَّمَ لُغَةَ قَبِيلَتِهِ، وَعَادَاتِهِمْ وَفُنُونَ قِتَالِهِمْ، حَتَّى كَادَ لَا يُعْرَفُ أَنَّهُ غَرِيبٌ بَيْنَهُمْ. فَتِلْكَ الْبَيْدَاءُ التي عَاشَ بِهَا أَخَذَتْ مِنْهُ قِطَعًا وَصَارَ ابْنًا لَهَا. تِلْكَ الْأُمُّ التي تَبَنَّتْهُ وَأَلِفَتْهُ وَأَلِفَهَا بَدَتْ وَكَأَنَّ أَمْرًا جَلَلًا يَتَحَضَّرُ لَهُ. فَلَمْ تَعُدْ مُظْلِمَةً بِنَهَارِهَا، وَالنُّورُ يَنْبَلِجُ بِكُلِّ لَيَالِيهَا، فَقَدْ ظَهَرَتْ رِسَالَةُ الْخُلُودِ بِتِلْكَ الْبَيْدَاءِ، وَكَانَتِ الْقَبِيلَةُ قَدْ نَالَتْ شَرَفَ تِلْكَ الرِّسَالَةِ وَآمَنَتْ بِهَا، وَأَصْبَحَ مِنْ وَاجِبِهِمْ نَقْلُهَا إِلَى كُلِّ مَكَانٍ. فَأَيْنَمَا حَلَّتْ، أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِوُجُودِهَا. حَتَّى أَتَى الْيَوْمُ الذي تَنْتَظِرُهُ الْقَبِيلَةُ، وَبَدَأَتِ الْقَوَافِلُ تَتَجَهَّزُ لِتِجَارَتِهَا. فَكُلٌّ قَدْ حَمَّلَ نُوقَهُ بِمُخْتَلِفِ الْبَضَائِعِ، وَكَانَ الرَّجُلُ مَعَ ابْنِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ. فَقَدِ اجْتَمَعَ رِجَالُ الْقَبِيلَةِ بِسَاحَةِ قَبِيلَتِهِمْ يُرِيدُونَ المُضِيَّ، حَتَّى وَقَفَ الْفَتَى الذي قَدْ غَدَا فَارِسًا مِنْ فُرْسَانِهِمْ، وَأَزَالَ رِدَاءَهُ لِيُظْهِرَ ذَلِكَ

الْوَشْمَ الذي أَخْفَاهُ كُلَّ تِلْكَ السِّنِينَ، لِيُخْبِرَهُمْ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ فَقَالَ لَهُمْ: "أَتَرَوْنَ الذي رُسِمَ عَلَى ظَهْرِي؟ أَتَعْلَمُونَ حَقِيقَتَهُ؟ مَنْ أَنَا؟ وَلِمَ أَخْفَيْتُ أَمْرِي عَنْكُمْ؟". كَانَ الصَّمْتُ وَالدَّهْشَةُ جَوَابَهُمْ. فَأَيُّ أَمْرٍ يُخْفِيهِ فَتًى أَتَى بِهِ رَجُلٌ بَدَلَ تِجَارَةٍ خَسِرَهَا. ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: "أَنَا ابْنُ مَلِكِ الشَّمَالِ، وَالْوَرِيثُ لِمُلْكِهِ. وَكَانَ لِي عَمٌّ قَتَلَ وَالِدِي وَجَمِيعَ عَائِلَتِي، وَدَمَّرَ قَصْرَهُ وَاغْتَصَبَ مُلْكَهُ. ثُمَّ أَتَى بِي هَذَا الرَّجُلُ، حَمَانِي وَجَعَلَنِي ابْنًا لَهُ. حَفِظْتُ سِرِّي وَلَمْ أُخْبِرْ بِهِ أَحَدًا لِعِلْمِي أَنَّ عَمِّي لَوْ عَلِمَ بِأَمْرِي لَقَتَلَنَا جَمِيعًا. كُنْتُ أُرِيدُ الِانْتِقَامَ وَهُوَ جُلُّ أَمْرِي، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ وَصَلَتْ إِلَيَّ رِسَالَةُ النُّورِ وَآمَنْتُ بِهَا، لَمْ يَعُدْ أَمْرِي الِانْتِقَامَ، بَلْ كُلُّ مَا أُرِيدُهُ أَنْ تَصِلَ تِلْكَ الرِّسَالَةُ إِلَى أَبْنَاءِ شَعْبِي. فَمَنْ يُصَدِّقْ حَدِيثِي هَذَا فَلَهُ مَا لِي وَعَلَيْهِ مَا عَلَيَّ".

بِدَايَةَ الْأَمْرِ لَمْ يُصَدِّقْ أَيُّ أَحَدٍ مَا قَالَهُ، حَتَّى أَتَتْ تِلْكَ المَرْأَةُ الْعَجُوزُ وَأَخْبَرَتْهُمْ بِصِدْقِهِ وَذَكَّرَتْهُمْ بِالْيَوْمِ الذي أَتَى الرَّجُلُ ذُو النَّدْبَةِ يَسْأَلُ عَنْهُ. عِنْدَ كَلَامِ تِلْكَ المَرْأَةِ، صَدَّقَهُ كُلُّ رِجَالِ الْقَبِيلَةِ. ثُمَّ تَابَعَ بِقَوْلِهِ: "فَمَنْ كَانَ يُرِيدُ تِجَارَةً لَا تَبُورُ وَحَيَاةَ الْقُصُورِ، فَاتْرُكُوا تِجَارَتَكُمْ وَسِيرُوا مَعِي. احْمِلُوا السَّيْفَ وَالرُّمْحَ بِيَدٍ، وَحَمَامَةً بَيْضَاءَ بِيَدٍ". اسْتَجَابَ الرِّجَالُ لِطَلَبِهِ وَسَارُوا وَرَاءَهُ شَمَالًا وَدَخَلُوا وَرَاءَهُ. كَانَ يَدْخُلُ الْقُرَى وَهُوَ كَاشِفٌ عَنْ ظَهْرِهِ، وَمَا إِنْ يَنْظُرِ النَّاسُ إِلَى ظَهْرِهِ حَتَّى يَأْتُونَ إِلَيْهِ سِرَاعًا، يُرَحِّبُونَ بِهِ وَيُبَايِعُونَهُ، وَيَسِيرُونَ وَرَاءَهُ حَتَّى اجْتَمَعَ وَرَاءَهُ جَمْعٌ غَفِيرٌ مِنَ الْبَشَرِ، مِنْهُمُ الْفُرْسَانُ وَالمُحَارِبُونَ، وَكُلُّهُمْ يَأْتَمِرُونَ بِأَمْرِهِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْقَصْرِ الْحَجَرِيِّ المُدَمَّرِ. جَلَسَ عَلَى ذَاتِ الصَّخْرَةِ، تَذَكَّرَ يَوْمَ قُتِلَ وَالِدُهُ، يَوْمَ أُحْرِقَتْ أُمُّهُ وَهِيَ تُدَافِعُ عَنْهُ، تَذَكَّرَ كَيْفَ أَخَذَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ وَدَافَعَ عَنْهُ. حِينَئِذٍ بَكَى لِأَوَّلِ مَرَّةٍ وَقَالَ: "قَدْ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِظَلَامِهَا"، كَانَ يَعْنِي تِلْكَ الْحَادِثَةَ التي أَوْصَلَتْهُ لِيَنَالَ رِسَالَةَ النُّورِ. "هَاتُوا سِرْبَ الْحَمَامِ وَأَطْلِقُوهُ يُرِيدُ السَّلَامَ وَإِيصَالَ رِسَالَتِهِ"، حَتَّى طَارَتْ إِلَى قَصْرٍ عَلَى تَلَّةٍ مُجَاوِرَةٍ وَحَطَّتْ عَلَى شُرُفَاتِهِ. إِنَّهُ قَصْرُ عَمِّهِ الذي قَتَلَ وَالِدَهُ. فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ أَخَذَ الْحَمَامَاتِ وَقَطَعَ رُؤُوسَهَا وَرَمَاهَا... وَبِهَذَا فَإِنَّهَا الْحَرْبُ، وَأَتَى الِانْتِقَامُ يَجُرُّ ثَوْبَهُ. فَجَمَعَ فُرْسَانَهُ وَرِجَالَ قَرْيَتِهِ، وَأَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَمَامَةً مَقْطُوعَةَ الرَّأْسِ، وَبَلَّ رِيشَهَا بِمَادَّةٍ شَدِيدَةِ الِاشْتِعَالِ، وَهَجَمُوا عَلَى قَصْرِ عَمِّهِ وَأَحْرَقُوا الْقَصْرَ

بِمَنْ فِيهِ. وَهَكَذَا نَالَ الشَّابُّ انْتِقَامَهُ وَأَعَادَ مُلْكَهُ المَسْلُوبَ وَنَشَرَ الرِّسَالَةَ بَيْنَ أَبْنَاءِ شَعْبِهِ، وَوَزَّعَ الْأَمْوَالَ بَيْنَهُمْ وَأَكْثَرَ مِنَ الْعَطَاءِ لِأَبْنَاءِ قَبِيلَتِهِ. أَمَّا أُمُّهُ وَأَبُوهُ فَقَدْ أَتَى بِهِمَا وَجَمَعَ فُرْسَانَهُ وَجَعَلَهُمْ يَنْحَنُونَ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا...

عِنْدَ هَذِهِ الْعِبَارَةِ كُنْتُ بَيْنَ الْيَقَظَةِ وَالنَّوْمِ، أَغْفُو عَلَى فَخِذِ تِلْكَ المَرْأَةِ الْعَجُوزِ وَهِيَ تُطَبْطِبُ عَلَى ظَهْرِي، وَمَا زَالَتِ الرِّيحُ تَحْمِلُ غُبَارَ بَيْتِنَا المُدَمَّرِ، تَحْرِقُ وَجْهِي وَتَحْرِمُنِي النَّوْمَ، حَتَّى غَسَلْتُهُمَا بِبُكَائِي عَلَى لُعْبَتِي التي احْتَرَقَتْ، وَغَطَطْتُ فِي نَوْمٍ أَرَى بِهِ نَفْسِي أَجْلِسُ عَلَى رُكَامِ بَيْتِنَا المُدَمَّرِ فَيَأْتِي ذَلِكَ الرَّجُلُ وَيَأْخُذُنِي مِنْ يَدِي... رُبَّمَا حِكَايَتُهَا تِلْكَ مِنْ نَسْجِ خَيَالِهَا، وَلَكِنَّهَا عَلَّمَتْنِي أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلٌ وَيَأْخُذَ بِأَيْدِينَا نَحْوَ السَّلَامِ... لَا بَلْ نَحْوَ الِانْتِقَامِ ثُمَّ السَّلَامِ....

# الظِلُّ الأَخِيرُ

.

بَعْدَ يَوْمٍ طَوِيلٍ ، قَصِيرٍ ، فَتَحْتُ ذَلِكَ البَابَ المَخْفِيَّ وَدَخَلْتُ إِلَيْهَا ، وَقَفَ هُوَ يَحْرُسُ البَابَ ، أَمَّا هِيَ فَقَدْ كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَيَّ بِعَيْنَيْهَا المُغْلَقَتَيْنِ ، وَتُكَلِّمُنِي بِصَمْتِهَا المُرْعِبِ ، تُرِيدُ أَمْراً وَاحِداً ، كَأْسَ خَمْرَتِهَا الَّذِي لَا تُرِيدُ شَيْئاً سِوَاهُ رَغْمَ اشْتِدَادِ مَرَارَتِهِ كُلَّ يَوْمٍ إِلَّا أَنَّهَا لَا تَمَلُّهُ ، فَرُبَّمَا تَجِدُهُ حُلْواً رَغْمَ صِرَاعِهَا اليَوْمِيِّ فِي الحُصُولِ عَلَيْهِ ، فَمُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ عِنْدَمَا كُنْتُ بِقُرْبِ الَّتِي أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَمِرَّ مَعَهَا فِي الحَيَاةِ إِلَى المَمَاتِ ، وَذَلِكَ المُشَاغِبُ الَّذِي يَسْكُنُ صَدْرِي أَخْرَجَ كُلَّ عِبَارَاتِ الحُبِّ لَهَا وَكَأَنَّهُ زَهْرَةٌ انْفَجَرَتْ دَفْعَةً وَاحِدَةً وَأَخْرَجَتْ كُلَّ عَبِيرِهَا بِنَسْمَةٍ وَاحِدَةٍ ، كَانَ مُتَأَكِّداً بِأَنَّ عِطْرَهُ سَوْفَ يُعْجِبُهَا وَفِي المُقَابِلِ سَوْفَ تُعْطِيهِ كُلَّ حُبِّهَا وَتَحْتَضِنُهُ ، وَلَكِنَّهَا خَانَتْ كُلَّ أَحَاسِيسِهِ وَتَوَقُّعَاتِهِ وَقَالَتْ لِي : لَقَدْ تَزَوَّجْتُكَ دُونَ مَعْرِفَةٍ مُسْبَقَةٍ ، زَوَاجُنَا كَانَ تَقْلِيدِيّاً ، وَلَمْ تُتَحْ لِي الفُرْصَةُ لِأَنْ أُحِبَّكَ . لِأَنْ أَكُونَ لَكَ عَاشِقَةً وَمَفْتُونَةً بِكَ ، كَانَ الوَقْتُ قَصِيراً فَلَمْ أَتَعَلَّمِ النَّجْوَى إِلَيْكَ ، فَالَّذِي بَيْنَنَا مَوَدَّةٌ وَرَحْمَةٌ لَا أَكْثَرَ ، أَتَشْرَبُ القَهْوَةَ **!؟**

هَذِهِ اللَّحْظَةُ الَّتِي فَصَلَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ رُوحِي وَأُخْرِجَتْ عُنْوَةً مِنْ جَسَدِي ، وَذَلِكَ الشَّقِيُّ ... كَبِرَ فَجْأَةً دُونَ مُقَدِّمَاتٍ وَسِنِينَ ، وَخُلِقَ ظِلٌّ صَغِيرٌ هُوَ

الَّذِي يَحْرُسُ الغُرْفَةَ المَخْفِيَّةَ . .. نَعَمْ أُرِيدُ فِنْجَاناً مَعَكِ فَرُبَّمَا كَانَ مَرَارُ القَهْوَةِ حِينَهَا لِيَدْفَعَ مَرَارَةَ الغُصَّةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِحَلْقِي ، قَامَتْ بِبُرُودٍ لِتَصْنَعَ قَهْوَتَنَا ، أَمَّا الظِلُّ الصَّغِيرُ فَقَدْ قَامَ عَلَى عَجَلٍ وَبَنَى تِلْكَ الغُرْفَةَ السَّوْدَاءَ مِنْ ظَلَامِ قَهْوَتِهَا ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا أَيَّ كُوَّةٍ لِلدِّفْءِ وَأَخَذَ بُرُودَ غُرْفَتِهَا وَجَعَلَ مِنْهُ بَاباً لِتِلْكَ الغُرْفَةِ ، وَلَمْ تَكُنْ لِتَنْتَهِيَ مِنْ صُنْعِ القَهْوَةِ حَتَّى عَادَ مُسْرِعاً وَانْتَزَعَ رُوحِي وَقَذَفَ بِهَا بَيْنَ غَيَاهِبِ سَكَنِهَا الجَدِيدِ ، وَتَرَكَنِي مَعَ قَلْبِي فِي تِيهٍ دَائِمٍ ، عَادَتْ تَحْمِلُ قَهْوَتَهَا مَعَ قِطْعَةِ الحَلْوَى الَّتِي اسْتَحَالَتْ فِي فَمِي كَأَنَّهَا حَبَّةُ حَنْظَلٍ وَلَكِنْ لَمْ أُبْدِ أَيَّ أَمْرٍ يَدُلُّ عَلَى الَّذِي يَجُولُ بِخَاطِرِي ، أَوْ أَنَّ القَلْبَ جُرِحَ عَمِيقاً فَلَمْ يَسْتَطِعْ تَحْرِيكَ شَيْءٍ بِدَاخِلِي ، قَالَتْ تَفَضَّلْ ، اِشْرَبْ ! ! رُبَّمَا تُحَاوِلُ صُنْعَ حَدِيثٍ مَعِي ، نَحْتَاجُ بَعْضَ الأُرْزِ فَلَمْ يَعُدْ فِي البَيْتِ مِنْهُ مَا يَكْفِي لِصُنْعِ وَجْبَةٍ أُخْرَى ، قَالَتْ حَدِيثَهَا وَكَأَنَّهَا نَسِيَتِ الَّذِي قَالَتْهُ ، هَلْ هَذِهِ الحَيَاةُ بَيْنَ الأَزْوَاجِ ، هَلْ هَذِهِ هِيَ المَرْأَةُ الَّتِي كُنْتُ أَحْلَمُ بِهَا وَأَقُولُ فِي قَرَارَةِ نَفْسِي لَوْ ذَكَرَهَا أَحَدٌ أَمَامِي بِأَيِّ أَمْرٍ لَا تُؤْذِنِي بِهَا ، هَلْ أَنَا مُخْطِئٌ فِي الحُلْمِ وَالرَّجَاءِ ، أَمْ أَنَّ الحَيَاةَ سَلَبَتْ مِنْهَا قَلْبَهَا ، لَمْ أَعُدْ أَعْرِفُهَا رَغْمَ كُلِّ تِلْكَ السِّنِينَ ، فَقَدْ خَدَعَنِي قَلْبِي مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ بِأَنَّهَا تُحِبُّنِي ، وَلَكِنَّ الأَمْرَ كَانَ مُجَرَّدَ وُدٍّ تَحْمِلُهُ أَغْلَبُ النِّسَاءِ لِأَزْوَاجِهِنَّ بِحُكْمِ العِشْرَةِ ، أَجَبْتُهَا : بِأَنِّي سَوْفَ أَجْلِبُ كُلَّ حَاجِيَّاتِ المَنْزِلِ وَارْتَشَفْتُ الفِنْجَانَ كَامِلاً دَفْعَةً وَاحِدَةً ، فَقَلْبِي الشَّقِيُّ كَانَ يَجْلِسُ بِقُرْبِي وَيَسْخَرُ مِنِّي ، وَمَا كَانَ يَغِيظُنِي ضَحِكُهُ عَلَى جَسَدِي الَّذِي كَبِرَ دُونَ ذَنْبٍ مِنْهُ ، لِأَجْلِ مَاذَا ! ! ! ؟ لِيَحْصُلَ عَلَى حُبِّهَا ... رُبَّمَا كُنْتُ مُخْطِئاً بِهَذَا الكَمِّ مِنَ المَشَاعِرِ الَّتِي انْهَالَتْ دَفْعَةً وَاحِدَةً ، فَرُبَّمَا تُحِبُّنِي وَلَا تَعْرِفُ التَّعْبِيرَ ، كَلِمَةُ أُحِبُّكَ ثَقِيلَةٌ لَا يُجِيدُهَا كُلُّ إِنْسَانٍ ، أَرْبَعَةُ حُرُوفٍ فَقَطْ وَلَكِنَّهَا لُغَةٌ وَمُحِيطٌ ، جِهَاتٌ أَرْبَعٌ وَشَمْسٌ لَا تَعْرِفُ المَغِيبَ ، هَذَا هُوَ الوَاقِعُ عِنْدَمَا يَكُونُ الحُبُّ هُوَ وَقُودَ الحَيَاةِ بَيْنَ الأَزْوَاجِ ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا يَتَحَوَّلُ إِلَى مُجَرَّدِ عَقْدٍ تَلْفِظُهُ الأَلْسُنُ وَتَكْتُبُهُ الأَيْدِي تَتَحَوَّلُ الحَيَاةُ إِلَى كِتَابٍ يَبْتَلِعُ الحَيَاةَ دُونَ طَعْمٍ ، عِبَارَةٌ عَنْ غُرَفٍ مُظْلِمَةٍ وَبِهَا بُكَاءُ الأَطْفَالِ وَعَوِيلُهُمْ، وَلَوْلَا الفِطْرَةُ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا الإِنْسَانُ حَتَّى الأَطْفَالُ لَمْ تَكُنْ ، يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ يَشِيخُ جَسَدِي الَّذِي لَمْ يَأْنِ لَهُ المَشِيبُ ، وَرُوحِي المُعَلَّقَةُ بِدَاخِلِ تِلْكَ الغُرْفَةِ تَصْبَحُ أَكْثَرَ وَحْدَةً وَوَحْشَةً مِنَ السَّابِقِ ، وَلَا شَيْءَ لِيُغَذِّيَهَا سِوَى الكَأْسِ الفَارِغِ مِنَ الخَمْرَةِ الَّتِي تَشْتَهِيهَا، خَمْرُ الجَنَّةِ عَلَى الأَرْضِ

.... الأَمَلُ وَاليَأْسُ هُمَا الشَّرِيكَانِ فِي اسْتِمْرَارِي بِهَذِهِ الحَيَاةِ ، أَمَلِي فِي العُثُورِ عَلَى سَكَنِي وَاليَأْسُ مِنَ العُثُورِ عَلَيْهِ ، دَائِرَةٌ مُفْرَغَةٌ أَعِيشُهَا كُلَّ يَوْمٍ مَعَ رُوحِي المَسْجُونَةِ وَذَلِكَ القَلْبِ الَّذِي لَمْ يُفَارِقِ البَابَ أَبَداً ، مَا الَّذِي يَمْنَعُهَا مِنْ نُطْقِ أَرْبَعَةِ أَحْرُفٍ ، وَمُبَادَلَتِي الشُّعُورَ نَفْسَهُ ، حَاوَلْتُ أَنْ أُجَدِّدَ التَّبْرِيرَ وَالتَّفْسِيرَ لِهَذَا الأَمْرِ ، هَلْ أَنَا مُقَصِّرٌ بِحَقِّهَا ، رُبَّمَا كُنْتُ فَأَنَا لَنْ أَضَعَ اللَّوْمَ عَلَيْهَا كُلَّهُ ، وَرُبَّمَا هَدِيَّةٌ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَصْنَعَ المِفْتَاحَ لِقَلْبِهَا وَتَجْعَلَهُ مَفْتُوحاً ، حَتَّى لَا أَبْقَى أَعِيشَ عَلَى أَمَلٍ أَنْ أَحْصُلَ عَلَى حُبِّهَا ، مُجَفِّفُ شَعْرٍ ، رُبَّمَا هَدِيَّةٌ مُتَوَاضِعَةٌ وَلَكِنْ لَيْسَتْ فِي القِيمَةِ المَادِّيَّةِ بَلْ بِمَا تَحْمِلُهُ الهَدِيَّةُ مِنْ مَعْنًى يُفَسَّرُ بِالمَادَّةِ ، حَمَلْتُهُ بَيْنِ يَدَيَّ وَكَأَنَّنِي أَحْمِلُ طِفْلاً صَغِيراً ، أُنَاجِي قَلْبِي بِأَنَّهَا سَوْفَ تُظْهِرُ حُبَّهَا لِي أَخِيراً ، وَصَلْتُ البَيْتَ ، كَانَتْ فِي المَطْبَخِ تَغْسِلُ الصُّحُونَ ، نَبَّهْتُهَا عَلَى كَتِفِهَا وَأَعْطَيْتُهَا هَدِيَّتَهَا بِيَمِينِي وَبِيَمِينِ رُوحِي أَحْمِلُ قَلْبِي وَأُقَدِّمُهَا لَهَا ..... جَوَابُهَا كَانَ أَشْبَهَ بِحَبَّةِ الحَنْظَلِ، يُشْبِهُ البِطِّيخَ الحُلْوَ وَلَكِنَّهُ أَشَدُّ النَّبَاتَاتِ مَرَاراً ، قَالَتْ لِي : ذَوْقُكَ لَا يُوَافِقُ ذَوْقِي وَلَكِنْ شُكْراً ... وَأَخَذَتْهُ وَوَضَعَتْهُ جَانِباً وَأَكْمَلَتْ غَسْلَ الصُّحُونِ ، لَيْتَ الأَرْضَ حِينَهَا غَسَلَتْ رُوحِي مِنَ الحَيَاةِ ، كُنْتُ أَتَوَقَّعُ حُضْناً وَقُبْلَةً ، وَلَكِنَّ الَّذِي حَصَلْتُ عَلَيْهِ مُجَرَّدُ رَائِحَةِ الصَّابُونِ وَسَائِلِ الجَلِيِّ ، ضَحِكَ قَلْبِي كَثِيراً وَانْهَالَ بِالسُّخْرِيَّةِ عَلَى أَمْرِي ، أَمَّا اليَوْمَ سَوْفَ أُعَذِّبُ رُوحَكِ عَذَاباً لَنْ تَنَالَ بَعْدَهُ ، وَسَاقَ رُوحِي إِلَى غُرْفَتِهَا وَكَبَّلَهَا وَانْهَالَ عَلَيْهَا بِكُلِّ أَنْوَاعِ العَذَابِ حَتَّى لَمْ يَعُدْ ظِلُّهَا يَبْدُو لَهُ أَيُّ أَثَرٍ ... وَبَعْدَ فَتْرَةٍ كَانَ المُجَفِّفُ خَارِجَ البَيْتِ وَلَمْ أَعُدْ أَعْرِفُ أَيْنَ هُوَ ...

الأَيَّامُ تَطْوِي بَعْضَهَا البَعْضَ حَتَّى أَتَى اليَوْمُ الَّذِي لَمْ يَعُدْ هُنَالِكَ مِنْ أَمَلٍ وَاسْتَوْلَى اليَأْسُ عَلَى البَيْتِ كَامِلاً ، أَيْقَنْتُ بِأَنَّهُ لَا طَرِيقَ لِقَلْبِهَا ، لَا لِلْحُبِّ ، وَرُوحِي أُغْلِقَ عَلَيْهَا كَامِلاً ، وَالَّذِي كَانَ يَحْكُمُنَا سَابِقاً وَمَا زَالَ اسْتِمْرَارُ الحَاجَةِ إِلَى البَقَاءِ لَيْسَ أَكْثَرَ ، مُجَرَّدُ شَجَرَةٍ تَتَكَاثَرُ وَتَرْمِي بِأَطْفَالِهَا مِنْ بَعْدِهَا .... انْتَهَى اليَوْمُ وَأَوَتْ إِلَى فِرَاشِهَا ... نَوْمٌ عَمِيقٌ فَلَا الحَيَاةُ تَعْنِي لَهَا بِشَيْءٍ ، وَلَا أَيُّ مَخْلُوقٍ يَسْتَطِيعُ كَسْرَ سُكُونِ الوُدِّ المَفْرُوضِ وَالإِحْتِرَامِ المَوْجُودِ ، بَقَاءٌ وَازْدِيَادٌ فِي العَدَدِ لَا أَكْثَرَ ، دُونَ قَلْبٍ يُحِبُّ ، دُونَ رُوحٍ تَعْشَقُ وَتَعْرِفُ المُنَاجَاةَ ، جَسَدٌ يَعِيشُ يَوْمَهُ وَيُنْجِبُ الأَطْفَالَ ... مِنْ سُكُونِ

اللَّيْلِ الَّذِي أَعِيشُهُ كُلَّ يَوْمٍ ، وَمِنْ تَرَاتِيلِ قِصَصِي الَّتِي أَكْتُبُهَا صَنَعَتْ رُوحِي مِفْتَاحاً لِسِجْنِهَا وَكَسَرَتْ قَيْدَهَا ، أَخَذَتْ مَا بَقِيَ مِنْ ظِلِّهَا وَغَادَرَتْ إِلَى مَكَانٍ لَا أَعْرِفُهُ وَبَقِيتُ مَعَ ذَلِكَ القَلْبِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الرَّحْمَةَ أَبَداً ، قَتَلَ رُوحِي وَظِلَّهَا وَهَا هُوَ اليَوْمَ يَقْتُلُ جَسَدِي المُتَسَوّلَ عَلَى عَتَبَاتِ اهْتِمَامِهَا

# الفُسْتَانُ

عَلَى غَيْرِ عَادَتِهَا هَذَا اليَوْمَ، فَقَدِ اسْتَيْقَظَتْ قَبْلِي بِوَقْتٍ قَصِيرٍ وَأَعَدَّتْ لِي الفَطُورَ؛ زَيْتٌ وَزَعْتَرٌ وَكَمُّونٌ مَطْحُونٌ، وَهَذِهِ الأُمُورُ البَسِيطَةُ الَّتِي تُوجَدُ كُلَّ يَوْمٍ. يَا لَهُ مِنْ يَوْمٍ جَمِيلٍ! رُبَّمَا قَدْ تَحَوَّلَتْ وَاسْتَقَامَتْ وَأَرَادَتْ لِي الحَيَاةَ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُغَيِّرْ طَبْعَهَا، فَالَبَيْضُ وَالجُبْنَةُ مُخَصَّصَانِ لَهَا. لَقَدِ اعْتَدْتُ عَلَيْهَا، فَقَدْ أَعْمَانِي حُبِّي لَهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَجَمَالُهَا الَّذِي لَا يُوجَدُ لَهُ مَثِيلٌ كُنْتُ مُسْتَعِدّاً أَنْ أَعِيشَ مِثْلَ العَبْدِ بَيْنَ يَدَيْهَا حَتَّى أُنْهِيَ يَوْمِي وَأَنَا أَتَأَمَّلُهَا.

وَأَنَا أَضَعُ اللُّقْمَةَ فِي فَمِي قَالَتْ بِنَبْرَتِهَا المَعْهُودَةِ:

أُرِيدُ فُسْتَاناً!!! يَكُونُ أَزْرَقَ، وَذَا أَكْمَامٍ طَوِيلَةٍ، وَمُطَرَّزاً بِخُيُوطٍ حَرِيرِيَّةٍ.

كَادَتِ اللُّقْمَةُ تَخْنُقُنِي لَوْلَا رَشْفَةُ الشَّايِ الَّتِي حَرَقَتْ فَمِي وَاسْتَمَرَّتْ لِمُنْتَصَفِ حَلْقِي... هَذَا كَثِيرٌ! وَمِنْ أَيْنُ آتِي بِهِ؟! فَأَجْرُ عَمَلِي الَّذِي لَا يَكَادُ يَشْتَرِي لَنَا الخُبْزَ وَالسُّكَّرَ، كَيْفَ لَهُ أَنْ يَشْتَرِيَ لَكِ الفُسْتَانَ؟! أَجِيرٌ فِي مَطْحَنَةٍ لِلْقَمْحِ يَكَادُ ظَهْرِي يَنْكَسِرُ تَحْتَ حَمْلِ الأَكْيَاسِ حَتَّى أَسْتَطِيعَ أَنْ أَجْلِبَ حَوَائِجَ المَنْزِلِ.. ثُمَّ تَذَكَّرْتُ ضِلْعِي المَكْسُورَةَ وَضَغَطْتُ عَلَيْهِ حَتَّى آلَمَنِي، وَقُلْتُ لَهَا: "هَذَا ثَمَنُ الحَلْوِيَّاتِ"، وَسَخِرْتُ مِنْ نَفْسِي مَعَ ضِحْكَةٍ ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِي؛ كَيْفَ أَنْسَاقُ لَهَا وَلِطَلَبَاتِهَا؟! ثُمَّ وَاسَيْتُ نَفْسِي مُوَاسَاةَ الأَحْمَقِ بِقَوْلِي: "نَظْرَةٌ لِوَجْهِهَا تُعَادِلُ الدُّنْيَا... يَا أَخِي تَسْتَحِقُّ أَنْ تَطْلُبَ". ثُمَّ تَابَعَتْ: "إِيَّاكَ وَالعَوْدَةَ دُونَ الفُسْتَانِ، فَاللَّوَاتِي يَلْبَسْنَهُ لَسْنَ بِأَفْضَلَ مِنِّي".

مَعَ هَذَا التَّهْدِيدِ وَالوَعِيدِ خَرَجْتُ مِنَ البَيْتِ وَبِيَدِي لُفَافَةُ الخُبْزِ حَتَّى لَا أَتَأَخَّرَ عَنِ العَمَلِ، مَعَ كُلِّ قَضْمَةٍ أَغَصُّ بِالخُبْزِ مَرَّةً، وَبِكَيْفِيَّةِ تَأْمِينِ ثَمَنِ الفُسْتَانِ مَرَّةً أُخْرَى. تَذَكَّرْتُ حَدِيثَ أُمِّي -رَحِمَهَا اللهُ- عَنِ المَرْأَةِ الَّتِي تَجِدُ فِي الزَّوَاجِ مَشْرُوعَ حَيَاةٍ؛ هَمُّهَا الأَوَّلُ دِينُهَا ثُمَّ زَوْجُهَا وَعَائِلَتُهَا. كَانَتْ تَقُصُّ

لِي عَنْ حَيَاتِهَا مَعَ أَبِي الَّذِي لَا أَتَذَكَّرُ وَجْهَهُ فَقَدْ كُنْتُ يَتِيماً مُنْذُ صِغَرِي، كَيْفَ كَانَتْ تَعْمَلُ وَتَحْصُدُ الزَّرْعَ وَتُسَاعِدُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا أَتَذَكَّرُهَا إِلَّا بِعَبَاءَتِهَا السَّوْدَاءِ المَخِيطَةِ الجَانِبِ، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ جَمِيلَةً، وَلِلْجَمَالِ ثَمَنٌ وَعَلَيَّ بِأَنْ أَدْفَعَ الثَّمَنَ!

بَيْنَ هَذَا وَذَاكَ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى المَطْحَنَةِ وَبَدَأْتُ بِعَمَلِي، وَلَكِنْ كَانَ ذِهْنِي مَشْغُولاً؛ كَيْفَ لِي أَنْ أُؤَمِّنَ ثَمَنَ الفُسْتَانِ؟ حَتَّى لَاحَظَ عَلَيَّ صَاحِبُ المَطْحَنَةِ هَذَا الأَمْرَ، فَسَأَلَنِي عَنِ الَّذِي يَشْغَلُ بَالِي، فَأَخْبَرْتُهُ بِالقِصَّةِ. سَخِرَ مِنِّي وَضَحِكَ حَتَّى اهْتَزَّ شَارِبَاهُ ارْتِفَاعاً وَانْخِفَاضاً، وَكَادَ فَكُّهُ يَنْخَلِعُ لِشِدَّةِ ضَحِكِهِ، وَلَكِنَّهُ فِي النِّهَايَةِ وَافَقَ أَنْ يُعْطِيَنِي ثَمَنَ الفُسْتَانِ.

سُوَيْعَاتٌ وَانْتَهَى يَوْمِي فِي العَمَلِ، وَأَتَى صَاحِبُ المَطْحَنَةِ وَأَعْطَانِي مَا وَعَدَنِي؛ ثَمَنَ الفُسْتَانِ.. أُجْرَةَ شَهْرٍ مُسْبَقاً. لَا بَأْسَ، فَهِيَ تَسْتَحِقُّ. رَكِبْتُ حِمَارِي وَتَوَجَّهْتُ إِلَى سُوقِ الأَلْبِسَةِ، بَحَثْتُ وَبَحَثْتُ لَكِنَّنِي لَمْ أَجِدْ سِوَى فُسْتَانٍ أَزْرَقَ وَلَكِنْ دُونَ الخُيُوطِ الحَرِيرِيَّةِ الَّتِي مِنَ المُفْتَرَضِ أَنْ تُحَلِّيَهُ. لَا بَأْسَ، فَهِيَ سَوْفَ تَتَقَبَّلُ الوَضْعَ وَتَتَفَهَّمُ بِأَنِّي لَمْ أَجِدْ غَيْرَهُ، فَأَخَذْتُهُ وَأَنَا أُدَمْدِمُ أُغْنِيَةً سَعِيدَةً، فَقَدِ اشْتَرَيْتُ لَهَا مَا اشْتَهَتْ نَفْسُهَا.

وَصَلْتُ إِلَى البَيْتِ وَأَرَدْتُ لَهَا المُفَاجَأَةَ، فَأَخْفَيْتُ الفُسْتَانَ ثُمَّ دَخَلْتُ. مِنْ غَيْرِ مُقَدِّمَاتٍ: "أَيْنُ الفُسْتَانُ؟!!"، فَأَجَبْتُهَا بِأَنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ تَأْمِينَ ثَمَنِهِ وَلَكِنْ أَتَيْتُ لَهَا بِشَيْءٍ أَجْمَلَ، فَرَدَّتْ وَقَدْ أَمَالَتْ شَفَتَيْهَا: "وَمَا الَّذِي هُوَ أَجْمَلُ مِنَ الفُسْتَانِ؟!"، فَاقْتَرَبْتُ مِنْهَا وَضَمَمْتُهَا: "هَدِيَّةٌ لَا تُقَدَّرُ بِثَمَنٍ، وَأَجْمَلُ مِنْ أَيِّ فُسْتَانٍ"، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُبَادِلْنِي العِنَاقَ، بَلْ قَالَتْ وَيَدَاهَا عَلَى خَصْرِهَا: "كُنْتُ أَظُنُّكَ رَجُلاً!".

لَحْظَةٌ مِفْصَلِيَّةٌ فِي الحَيَاةِ، فَكَمَا يُولَدُ الحُبُّ مِنْ نَظْرَةٍ يُقْتَلُ بِكَلِمَةٍ. قَتَلَتْ كُلَّ شَيْءٍ جَمِيلٍ كُنْتُ أَرَاهُ بِهَا، لَمْ تَعُدْ تِلْكَ الجَمِيلَةَ الَّتِي أَرَى، لَيْسَتْ هِيَ الجَمِيلَةَ الَّتِي دَفَعْتُ حَيَاتِي لِأَجْلِهَا. جُوعُ بَطْنِي لِتَشْبَعَ لَمْ يَكُنْ ذَا تَأْثِيرٍ، مُجَرَّدُ فُسْتَانٍ كَانَ مِنَ المُفْتَرَضِ أَنْ يَسْتُرَ الرُّوحَ وَالجَسَدَ، وَلَكِنَّهُ كَشَفَ وَعَرَّى كَامِلَ الحُبِّ وَقَتَلَهُ. فَكَكْتُ يَدَيَّ وَتَرَاجَعْتُ خَارِجَ البَابِ هَائِماً دُونَ

هُوِيَّةٍ، دُونَ مِيعَادٍ، لَمْ أُخْبِرْهَا بِأَنِّي قَدِ اشْتَرَيْتُ الفُسْتَانَ، وَأَغْلَقْتُ البَابَ الَّذِي فَتَحَ بَابَ قَلْبِي مِنْ جَدِيدٍ لِيَعُودَ فَارِغاً كَمَا كَانَ أَوَّلَ أَمْرِهِ.

أَخَذْتُ الفُسْتَانَ وَبَدَأْتُ أَسِيرُ وَحِيداً بَيْنَ الأَزِقَّةِ الفَارِغَةِ، وَهَكَذَا حَتَّى سِرْتُ خَارِجَ القَرْيَةِ بِأَكْمَلِهَا. كُنْتُ تَائِهاً لَا أَعْرِفُ أَيْنَ أَذْهَبُ، حَتَّى وَجَدْتُ خَيْمَةً كَانَتْ بَعِيدَةً عَلَى أَطْرَافِ قَرْيَتِنَا، اقْتَرَبْتُ مِنْهَا وَصِحْتُ عَلَى أَهْلِهَا، فَرَدَّتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ عَجُوزٌ وَدَعَتْنِي إِلَى الدُّخُولِ. خَيْمَةٌ لَيْسَ بِهَا شَيْءٌ سِوَى سِرَاجٍ لَا يَكَادُ يُضِيءُ أَمَامَهُ، وَفَرْشٍ مِنْ لِبَادٍ قَاسٍ، وَبَعْضِ المَتَاعِ القَلِيلِ، وَنَارٍ ضَعِيفَةٍ بِهَا القَلِيلُ مِنَ الجَمْرِ الَّذِي مِنَ المُفْتَرَضِ أَنْ يُدْفِئَ الَّذِي حَوْلَهُ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مِثْلَ صَاحِبَتِهِ، وَبِجَانِبِ الخَيْمَةِ رَجُلٌ عَجُوزٌ لَا يَكَادُ يَظْهَرُ مِنْهُ سِوَى عَظْمٍ بَارِزٍ عَلَى ضَوْءِ السِّرَاجِ الخَافِتِ.

قَالَتْ لِي: "اقْتَرِبْ يَا بُنَيَّ فَأَنَا مِثْلُ أُمِّكَ، لَا تَخَفْ". جَلَسْتُ بِقُرْبِهَا وَأَصْلَيْتُ كَفَّيَّ لِلنَّارِ حَتَّى شَعَرْتُ بِبَعْضِ الدِّفْءِ. دُونَ مُقَدِّمَاتٍ، أَصْدَرَ بَطْنِي صَوْتَ قَرْقَرَةِ الجُوعِ، فَمَدَّتْ يَدَهَا لِتَحْتَ الوِسَادَةِ وَأَخْرَجَتْ لِي رَغِيفَ خُبْزٍ، هُوَ الَّذِي تَمْلِكُهُ وَلَا شَيْءَ سِوَاهُ: "تَفَضَّلْ كُلْهُ يَا بُنَيَّ". تَنَاوَلْتُهُ وَكَأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنْ أَفْخَرِ الأَطْعِمَةِ مُمْتَزِجٌ بِالحُبِّ، فَرَغْمَ كِبَرِ سِنِّهَا وَتَجَاعِيدِ وَجْهِهَا القَاسِيَةِ الَّتِي تَلُوحُ وَتَخْتَفِي عَلَى ضَوْءِ النَّارِ، وَلَكِنَّهَا أَتْقَنَتْ صِنَاعَةَ الحُبِّ.

سَأَلَتْنِي: "مَا الَّذِي أَتَى بِكَ يَا بُنَيَّ بِهَذَا الوَقْتِ؟"، فَقَصَصْتُ عَلَيْهَا قِصَّتِي، وَوَضَعْتُ الفُسْتَانَ أَمَامِي كَأَنَّهُ شَاهِدٌ عَلَى مَا أَرْوِي لَهَا. قِصَّتِي تِلْكَ صَنَعَتْ عَلَى وَجْهِهَا ابْتِسَامَةً لَمْ أَرَ مِثْلَهَا أَبَداً؛ مَزِيجٌ مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ وَالمَرَحِ، وَرَغْمَ تَكَسُّرِ أَسْنَانِهَا وَتَسَاقُطِهَا وَلَكِنَّهَا ابْتِسَامَةٌ سَاحِرَةٌ، فَأَثَرُ صِنَاعَةِ الحُبِّ يَظْهَرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَوْ أَتْقَنَ الإِنْسَانُ صِنَاعَتَهُ. رَغْمَ إِنْصَاتِهَا وَاسْتِمَاعِهَا لِحَدِيثِي الَّذِي طَالَ حَتَّى وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ، كَانَتْ كُلَّ بِضْعِ لَحَظَاتٍ تُحَرِّكُ يَدَهَا فَوْقَ رَأْسِ ذَلِكَ الرَّجُلِ وَتَشُدُّ لِحَافَهُ عَلَى كَتِفَيْهِ وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظْرَةً خَاطِفَةً كَأَنَّهَا تَحُوطُهُ بِعَيْنَيْهَا.

بَعْدَمَا انْتَهَيْتُ مِنْ قِصَّتِي، سَأَلْتُهَا عَنْ حَالِ العَجُوزِ النَّائِمِ، فَقَالَتْ لِي: "إِنَّهُ زَوْجِي يَا بُنَيَّ، هُوَ مَرِيضٌ وَلَيْسَ لَهُ مَنْ يُعِيلُهُ سِوَايَ وَأَنَا أَقُومُ عَلَى خِدْمَتِهِ، وَأَنَا عَلَى هَذِهِ الحَالِ سَنَوَاتٍ طِوَالاً وَلَنْ أَتْرُكَهُ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ أَمْرَهُ، وَإِنَّ

لِي ابْنَةً مِنْهُ كَانَتْ قَدْ خَرَجَتْ لِجَانِبِ الخَيْمَةِ حَيْثُ نَضَعُ عَنْزَتَنَا عِنْدَمَا سَمِعَتْ صَوْتَكَ، تَفَضَّلْ خُذْ هَذَا اللِّحَافَ وَنَمْ يَا بُنَيَّ وَالخَيْرُ فِيمَا اخْتَارَهُ اللهُ".

لَيْلَتَهَا لَمْ أَسْتَطِعِ النَّوْمَ وَأَنَا أُفَكِّرُ كَيْفَ لِهَذِهِ المَرْأَةِ كُلُّ هَذَا الصَّبْرِ وَهِيَ تَعِيشُ بِهَكَذَا مَكَانٍ؟! لَيْسَ لَهَا شَيْءٌ وَلَا تَمْلِكُ شَيْئاً، وَرَغْمَ هَذَا هِيَ صَابِرَةٌ عَلَى زَوْجِهَا وَتُحِبُّهُ وَتَعْتَنِي بِهِ وَلَنْ تَتَخَلَّى عَنْهُ حَتَّى مَوْتِهَا. أَيْقَنْتُ أَنَّ الجَمَالَ لَيْسَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَنَّ هُنَالِكَ فَرْقاً شَاسِعاً بَيْنَ امْرَأَةٍ جَعَلَتْ مِنْ زَوَاجِهَا مَشْرُوعَ حَيَاتِهَا، وَبَيْنَ امْرَأَةٍ لَا تَعْرِفُ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا سِوَى الرَّغَدِ وَطِيبِ العَيْشِ. نَظَرْتُ إِلَى آخِرِ الجَمَرَاتِ المُتَوَاجِدَةِ وَأَلْقَيْتُ بِالفُسْتَانِ حَتَّى احْتَرَقَ، وَلَكِنَّهُ حَرَقَ أَصَابِعِي حَتَّى صَرَخْتُ!..

وَاسْتَفَقْتُ مَذْعُوراً.. كَانَتْ قَدْ وَضَعَتْ رَأْسِي بِحِجْرِهَا وَهِيَ تَتَلَمَّسُهُ وَتَنْظُرُ إِلَيَّ بِعَيْنَيْهَا السَّمْرَاوَيْنِ. تَذَكَّرْتُ أَنِّي نِمْتُ وَكُنْتُ مُنْهَاراً مِنَ التَّعَبِ، وَغَفَوْتُ دُونَ وِسَادَةٍ، فَوَضَعَتْ رَأْسِي بِحِجْرِهَا كُلَّ تِلْكَ المُدَّةِ دُونَ أَنْ تَشْتَكِيَ مِنْ ثِقْلِي. "كَمْ نِمْتُ؟!"، فَقَالَتْ: "لَقَدْ تَأَخَّرْتَ عَلَى عَمَلِكَ".

فَخَرَجْتُ مُسْرِعاً أَجُرُّ وَرَائِي نَدَمِي عَلَى مَا فَكَّرْتُ بِهِ، ثُمَّ عُدْتُ لِبُرْهَةٍ؛ نَظَرْتُ إِلَيْهَا فَضَحِكَتْ لِعَوْدَتِي مُسْرِعاً، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ سَبَبَ عَوْدَتِي، فَلَقَدْ قَتَلْتُ بِقَلْبِي كُلَّ امْرَأَةٍ سِوَاهَا

# سَكَن

تعلَمينَ يا سَيِّدَتي أَنَّني التَقيتُ بِكِ قَبْلَ وِلادَتي، وَسَكَنَتْ إِلَيْكِ روحي قَبْلَ جَسَدي، وَلَكِنَّهُمْ أَبْعَدوني عَنْكِ مُرْغَماً وَمُكْرَهاً وَدونَ عِلْمٍ مِنّي. كُلُّ اجْتِماعاتِهِمْ وَتَحالفاتِهِمْ إِنَّما كانَتْ لأكونَ مُسْتَأجِراً بِبَيْتي وَلا أَعْلَم!

طَوالَ سِنينَ طَويلَةٍ كُنْتُ مُقيماً وَمُسْتَأجِراً خَلْفَ الحُدودِ، حَتَّى بَنَيْتُ أَسْواراً وَحُدوداً تَحولُ بَيْني وَبَيْنَكِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ المَرَّةَ كانَتْ بِإِرادَتي. في عالَمِ الأَرْواحِ قَبْلَ الوِلادَةِ، التَقيتُ بِكِ لآخُذَ مِنْكِ عَهْداً بِأَنْ أَعْرِفَكِ عِنْدَما يَكونُ الأَوانُ قَدْ فاتَ، وَتِلْكَ الحُدودُ سَوْفَ تَحولُ بَيْني وَبَيْنَكِ.

مُجَرَّدُ لَحَظاتٍ فَقَطْ في عالَمِ ما قَبْلَ الوِلادَةِ جَعَلَتْني أَبْحَثُ عَنْكِ يا سَكَني وَأَنا لا أَعْرِفُكِ، لأَعيشَ بَعْدَها زَمَناً طَويلاً وَأَنا أَظُنُّ أَنَّ بَيْتي وَحُدودي هُما سَكَني. مَرَّتْ تِلْكَ اللَّحَظاتُ مُسْرِعَةً، وَخَرَجْتُ لأَوَّلِ سَكَنٍ لي وَلإِخْوَتي، نَتَشارَكُ بِهِ وَنَتَشاجَرُ وَلا نَعْرِفُ سِواهُ، وَرُبَّما سَوْفَ يُزاحِمُنا غَيْرُنا. مُجَرَّدُ سَنَواتٍ، وَكُلُّ واحِدٍ مِنّا سَوْفَ يَبْحَثُ عَنْ سَكَنِهِ الَّذي خُلِقَ إِلَيْهِ، وَرُبَّما يَكونُ لَهُ أَكْثَرُ مِنْ سَكَنٍ يَأْوي إِلَيْهِ.

أَمّا أَنا، الأَصْغَرُ سِنّاً وَالأَكْثَرُ حاجَةً لِلسَّكَنِ دونَ سِواي، فَقَدْ تُرِكْتُ وَحيداً باحِثاً عَنِ الأَمانِ وَالهُدوءِ. قُلْتُ لَكِ: "لَنْ تَجِدَهُ، وَلَكِنَّكَ سَوْفَ تَسْتَمِرُّ في البَحْثِ عَنْهُ"، وَسَوْفَ أَحْكي لَكَ عَنْكَ أَيُّها الصَّغيرُ الشَّقِيُّ.

دَخَلْتَ المَدْرَسَةَ، وَأَغْلَبُ رُسوماتِ كُتُبِكَ هيَ لِوَطَنٍ كَبيرٍ، بِهِ الكَثيرُ مِنَ الخُطوطِ وَالتَّقْسيماتِ الَّتي لا تَعْرِفُ أَنَّها سَوْفَ تَكونُ سَبَبَ لُهاثِكَ في الوُصولِ إِلى سَكَنِكَ البَعيدِ. وَلَكِنَّكَ يا صَغيري لا تَعْرِفُ شَيْئاً بَعْدُ، فَكُلُّ ما

يَهُمُّكَ هُوَ حُصولُكَ عَلى مَصْروفِكَ اليَوْميِّ وَشِراؤُكَ لِلْحَلْوى الَّتي تُحِبُّ، فَيُغَيَّبُ عَنْكَ هَدَفُكَ الأَساسِيُّ وَقَضِيَّتُكَ السَّامِيَةُ.

أَمّا الَّذينَ رَسَموا لَكَ تِلْكَ الخُطوطَ لَمْ يَكْتَفوا بِها فَقَطْ، بَلْ جَعَلوا مِنْ حِفْظِها في عَقْلِكَ أَوَّلاً، وَالدِّفاعِ عَنْها ثانِيَةً، شَرْطاً لِتَكونَ إِنْساناً صالِحاً. وَتَتَراكَمُ عَلَيْكَ الواجِباتُ شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى تُصْبِحَ موقِناً بِها، وَرُبَّما تَدْفَعُ دَمَكَ لِلْحِفاظِ عَلَيْها، غَيْرَ مُدْرِكٍ أَنَّ سَكَنَكَ سَوْفَ يَكونُ خَلْفَ تِلْكَ الخُطوطِ.

هَذا لا يَهُمُّكَ يا صَغيري الآنَ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ أَنْ تُعيقَ تَفْكيرَكَ بِشَيْءٍ لَنْ تَقْدِرَ عَلى إِصْلاحِهِ، وَلَكِنْ رُبَّما تَصْبِحُ أَنْتَ "أَنا" وَتَكْتُبُ لَنا. أَعْطِني أُذُنَيْكَ... عِنْدَما كَبِرْتَ قَليلاً بَدَأْتَ تَشْتاقُ لأَنْ تَصْبِحَ ساكِناً بِداخِلِ أَحَدِهِمْ؛ أَقْصِدُ عِنْدَما رَأَيْتَ تِلْكَ الفَتاةَ الصَّغيرَةَ الَّتي تَجْلِسُ بِجِوارِها في المَقاعِدِ الدِّراسِيَّةِ. حاوَلْتَ لَفْتَ انْتِباهِها وَلَكِنَّكَ لَمْ تَفْلَحْ، حاوَلْتَ وَحاوَلْتَ وَلَكِنَّكَ فَشَلْتَ. طُرِدْتَ لأَوَّلِ مَرَّةٍ مِنْ بابِ أَحَدِهِمْ، فَأَتَيْتَ باكِياً شاكِياً إِليَّ، فَأَعْطَيْتُكَ بِضْعَةَ أَسْطُرٍ هيَ ما كُنْتَ تَسْتَطيعُ حَمْلَهُ، وَأَخَذْتَها وَأَعْطَيْتَها لِمُعَلِّمِكَ الَّذي صُدِمَ مِنْها؛ ابْتَسَمَ وَوَضَعَها بِجَيْبِهِ وَفَضَّلَ السُّكوتَ حينَها، لأَنَّهُ لا يُريدُ أَنْ يَجْعَلَكَ تَسْتَمِرُّ بِطَريقٍ رُبَّما يُؤدي بِكَ إِلى الهاوِيَةِ. لَقَدْ كَتَبْتَ عَنْ تِلْكَ الحُدودِ وَأَنْتَ لا تَعْلَمُ قُدْسِيَّتَها!

أَنا آسِفٌ يا صَغيري، فَأَنا أُريدُ لَكَ أَنْ تَكونَ عَظيماً وَتَحْمِلَ أَعْظَمَ مَخْلوقٍ داخِلَ كُتُبِكَ الَّتي سَوْفَ يُمَزِّقونَها، فَأَنا لَنْ أَسْتَمِرَّ إِلى الأَبَدِ. ما زِلْتَ تَكْبَرُ يا صَغيري وَتَسْتَمِرُّ بِحَياتِكَ وَقَدَرِكَ، رُبَّما هيَ سَنَواتٌ قَصيرةٌ عَلَيْكَ وَلَكِنَّها طَويلَةٌ وَقاسِيَةٌ عَليَّ أَنا. أَنا آسِفٌ لأَنَّني اتَّخَذْتُ مِنَ المَأْساةِ وَالوَحْدَةِ سَبيلاً لِشَحْذِ هِمَّتِكَ وَقُوَّتِكَ، فَلَوْلاهُما لَمْ أَكُنْ.

في المَرْحَلَةِ الَّتي سَبَقَتِ المَرْحَلَةَ الجامِعِيَّةَ بِقَليلٍ، حاوَلْتَ مُجَدَّداً، وَلَكِنَّكَ كُنْتَ تَعيساً هَذِهِ المَرَّةَ أَيْضاً، وَلَمْ يَكُنْ مِنّي سِوى أَنْ عَلَّمْتُكَ أَساليبَ جَديدَةً في الكِتابَةِ وَابْتَعَدْتُ عَنِ الَّذي يُؤْذيكَ، فَوَقْتُ المَنْحِ لَمْ يَكُنْ قَدْ حانَ بَعْدُ، وَلَكِنَّكَ فَشَلْتَ أَيْضاً.. رُبَّما سَكَنُكَ الَّذي خَلْفَ الحُدودِ هُوَ قَدَرُكَ، أَوْ هُوَ مُجَرَّدُ شُعورٍ يُراوِدُني لا أَكْثَر.

وَتَوالَتْ عَلَيْكَ الانْتِكاساتُ وَأَسْبابُ فَشَلِكَ في الحُصولِ عَلى سَكَنِكَ الَّذي تُريدُ. صِراعُكَ هَذا في الحُصولِ عَلَيْهِ جَعَلَني أَكْثَرَ قُوَّةً بِداخِلِكَ، حَتَّى غَدَوْتَ سَيِّداً لِلْكَلِمَةِ وَأَصْبَحَتْ مِلْكَكَ، تَتَلاعَبُ بِها كَيْفَما شِئْتَ وَتُعَبِّرُ عَنْ أَحْوالِ الَّذينَ فَقَدوا سَكَنَهُمْ وَراءَ الحُدودِ المَزْعومَةِ.

أَنْتَ الآنَ شابٌّ مُتَلَهِّفٌ بِشِدَّةٍ لِسَكَنِكَ الخاصِّ الَّذي لا بُدَّ لَكَ مِنْهُ، كُنْتَ تَحْلَمُ بِفَتاةٍ تَعُدُّها سَكَنَكَ وَمَلْجَأَكَ، وَتُريدُها بِكُلِّ قُوَّتِكَ، وَلَكِنَّ داخِلَكَ أَخْفى عَنْكَ هَذا لِحينِ اليَوْمِ الَّذي خَسِرْتَها بِهِ إِلى الأَبَدِ. لا أُريدُ وَصْفَ حالَتِكَ يَوْمَها لأَنَّكَ تَعْرِفُهُ أَكْثَرَ مِنّي.. رَحَلَتْ مُجْبَرَةً عَنْكَ هيَ الأُخْرى، وَلَمْ تَكُنْ تَسْتَطيعُ مُقاوَمَةَ التَّيارِ الَّذي جَرَفَها ثُمَّ قَتَلَها عَلى الأَسْلاكِ الشّائِكَةِ الَّتي وُضِعَتْ عَلى تِلْكَ الحُدودِ وَالأَسْوارِ المَزْعومَةِ.

وَهَكَذا نَفْنى وَتَبْقى الأَسْوارُ، أَمّا السَّكَنُ فَلَيْسَ لَنا.. فَلا سَكَنَ اليَوْمَ وَلا غَداً.. أَسْوارٌ.. حُدودٌ وَأَسْوارٌ

# قارئة الفنجان

أريدُ النِّسيانَ فقط. أريدُ الحديثَ معكَ كمن يبدأُ الحبَّ لأوَّلِ مرَّةٍ بعد عشرِ سنواتٍ.. فبرودةُ هذه الغرفِ كادتْ أنْ تُلْحِقَ الهلاكَ بقلبي، فلا أريدُ للحياةِ أنْ تستمرَّ في ركضِها السَّريعِ دون التفاتٍ.

أحبُّ أنْ أعودَ لكتابِكَ الَّذي أهديتَني إيَّاه؛ أعيشُ ولو مرَّةً بين صفحاتِهِ السَّمراءِ فأسقي برودتَها بأنوثتي، ذاكَ الَّذي لم أتعلَّمْ منهُ سوى اليأسِ منكَ؛ أمزِّقُهُ، وعلى نارِ أوراقِهِ أغلي فنجانَيّ قهوةٍ. أفرغتُ ما تبقَّى في زجاجةِ عطرٍ زفافِنا، وتزيَّنتُ بآخرِ أثرٍ من حُمرةِ شفاهي.. لأجلِكَ. صنعتُ قهوتَنا بالحبِّ الخالصِ للمرَّةِ الأولى، وضعتُ الفنجانينِ، وندهتُ باسمِكَ.. الاسم الَّذي لم تسمعْهُ إلَّا في سرّي، فلم يجبْني سوى صريرِ البابِ وهو يُغلقُ فجأةً.. معلناً وحشتي، ووحدتي الَّتي لم أكنْ سببَها ولا أريدُها، ولم أكنْ أريدُ من فنجانِ قهوتي إلَّا كأسَ نبيذٍ يسرقُ روحي إليكَ لأوَّلِ مرَّةٍ وكلَّ مرَّةٍ بعدَها، ولكنَّهُ سرقَ ذاكرتي فمسحتُ على شفتي كمثلِ المخمورِ لأرسمَ على وجهي خطَّ حُمرتي الَّتي من المفترضِ ألَّا تزولَ إلَّا على ضحكاتي وهمساتي بين يديكَ، وتتحوَّلَ إلى اللَّونِ الأزرقِ الَّذي ارتسمَ تحتَ ذقنِ تِلكَ المرأةِ الَّتي كانتْ تطوفُ على خيامِ وقبابِ قريتِنا، تدَّعي قراءةَ الطَّالعِ والفنجانِ، وربَّما تصدِّقُها النِّساءُ، بل يحوِّلنَ جوفَها إلى دلَّةٍ وفنجانٍ بكثيرٍ من الأحيانِ؛ تكذبُ عليهنَّ ويصدِّقْنها وتذهبُ القهوةُ ضحيَّةً لأكاذيبِها.

وكانتْ أمِّي من بينِ اللَّواتي يرينَ بها مرآةَ المستقبلِ؛ تنتظرُ يومَ الإثنينِ وكأنَّهُ يومٌ مقدَّسٌ، والويلُ كلُّ الويلِ لأبي إنْ لم يحضرِ القهوةَ ومن أجودِ أنواعِها، علبةُ الزَّيتِ أو كيسُ البرغلِ جزاءَ أنْ يصبحَ جوفُكِ ملاذاً لأنيسةِ الصَّباحِ ورفيقةِ الأيَّامِ؛ كلامٌ ليسَ بذي معنى، وخطوطٌ وفرسانٌ وأزواجٌ، أعداءٌ وأصدقاءٌ وربَّما أرزاقٌ، وكلُّها بجلسةٍ واحدةٍ.

دخلتْ تِلكَ البغيضةُ إلى بيتِنا وجلستْ مع أمِّي الَّتي أسرعتْ لصنعِ فنجانِ القهوةِ الَّذي لم يلبثْ كثيراً حتَّى دخلَ جوفَها المظلمَ. كحالِ الأطفالِ جلستُ بحجرِ أمِّي الَّتي كانتْ منصتةً إليها باهتمامٍ بالغٍ، وهي تحكي وتقصُّ لها بجملةٍ من الشَّرقِ وأخرى من الغربِ، وترمقُني بنظراتِها حتَّى قالتْ لها:

"برودةُ الشِّتاءِ وحرُّ الصَّيفِ، حلاوةُ العنبِ وجفافُ الشَّعيرِ، سوف تحوطُ أغلى ما عندكِ"، والتقطتْ علبةَ الزَّيتِ وأخذتْ بيدِ أمِّي وقالتْ لها كلماتٍ لم أعرفْها، مجردُ كذبةٍ أخرى من كذبِها وخرجتْ ولم تعدْ أبداً.

لم أستفقْ من سكرتي من قهوتي إلَّا بعدَ أنْ وخزتْني نسماتُ المساءِ، ولم يكنْ أحداً ليغمضَ كتفَيَّ بدفءِ يديهِ فلم تعدْ لنبدأَ الحياةَ، أو لنرسمَ الحياةَ لأوَّلِ مرَّةٍ. أخذتُ فنجاني وغسلتُ وجهي، وبقيَ فنجانُكَ ينتظرُ مَن يقبِّلُهُ ويرسمُ عليهِ أولى لحظةٍ للحبِّ ولكنَّكَ لم تأتِ، لم تأتِ روحُكَ لتعانقَ دفءَ أنوثتي؛ فبرودُكَ وعدمُ اكتراثِكَ طوالَ تِلكَ السِّنينَ جعلَها كياسمينةٍ تخبِّئُ عطرَها ليومٍ تريدُ منِّي اللِّقاءَ ولكنَّكَ لم تأتِ.

حضرَ جسدُكَ في العاشرةِ مساءً، فصوتُ البابِ الصَّدِئ يعلنُ قدومَكَ بدلَ كلمةٍ أنتظرُ سماعَها كلَّ يومٍ، ولكنَّها تغرقُ وتحترقُ مع طعامِكَ الَّذي أعددتُهُ لكَ وتركتُهُ لكَ في المطبخِ، أمَّا ذلكَ الفنجانُ البريءُ لم تكترثْ لوجودِهِ بل لم تلمحْهُ أبداً، أمَّا ما تبقَّى من عطري فقد انسلَّ حزيناً من نافذةِ البيتِ ينتظرُكَ على شرفةِ البيتِ. أنهيتَ طعامَكَ على بابِ السَّرعةِ ودخلتَ لغرفةِ نومِكَ وحيداً وكأنَّكَ لم تسكنْ إليَّ يوماً، مجرَّدُ طاولةٍ تحملُ على قلبِها طعامَكَ ولباسَكَ وعندما تنتهي تتركُها وحيدةً لكلماتِها وأحاسيسِها.

أحببتُكَ سرّاً ولكنَّكَ لم تدر، فأمامَ كبرياءِ أنوثتي يختبئُ خجلي المتلهّفُ للزَّوالِ، فأبوحُ لكَ كم يعذِّبُني جفاؤكَ واقترابُكَ كلَّ يومٍ من الجمودِ الَّذي يكادُ يصلُ حافَّةَ اللَّاعودةِ؛ طفلةٌ صغيرةٌ بجسدٍ غضٍّ وشابٍّ بعمرِ العشرينَ، طفلةٌ لأنَّ قلبَها لم يسرقْهُ رجلٌ قبلَكَ يوماً، ورغيفُ خبزٍ تتوقُ لأنْ تنضجَ بعيداً عن الاحتراقِ سريعاً بحياةٍ لا يوجدُ بها سواكَ، فأمِّي الَّتي تجدِّلُ ضفائري لم تعدْ، بل وهبتْني إيَّاكَ لأكونَ لكَ سكناً وحضناً.

عشرُ سنواتٍ بدأتْ تتشكَّلُ على شكلِ خطوطٍ ومتاهاتٍ داخلَ فنجانِ قهوتِكَ الَّذي رفضتَ شربَهُ وهو يجفُّ يوماً وراءَ يومٍ، فأنظرُ بقعرِهِ لأقرأَ ما تبقَّى من حكايةِ قارئةِ الفنجانِ الَّتي لم تخبرْني بها أمِّي، وألُفُّ ما تبقَّى من أنوثتي ودفءِ أحضاني مع عطري وأحمرِ شفاهي، وأطلقُ سراحَهما من حافَّةِ شرفتِنا، وأعودُ إليكَ مِثلكَ أنتَ؛ جسداً لا يعرفُ سوى أنْ يعيشَ داخلَ

جدرانٍ أربعٍ، يقصُّ حكاياتٍ من خيالٍ يكتبُها كلَّ يومٍ عن امرأةٍ لم تخنْها قهوتُها وأخبرتْها الحقيقةَ لكنَّها لم تكترثْ لما قالتْ لها..."